عبد الرّحمن أيّوب

الرستن

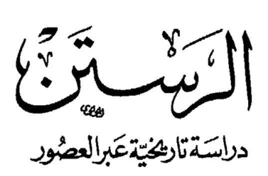
دراسة تاريخيّة عبر العصور





دمشق ــ اوتوستراد المزة
هاتف
٢٤٤١٢٦ ــ ٢٤٣٩٥١ ــ ٢١٣٨٢١
تلكس: ٤١٢٠٥٠
ص. ب: ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي


الرستن
دراسة تاريخية عبر العصور

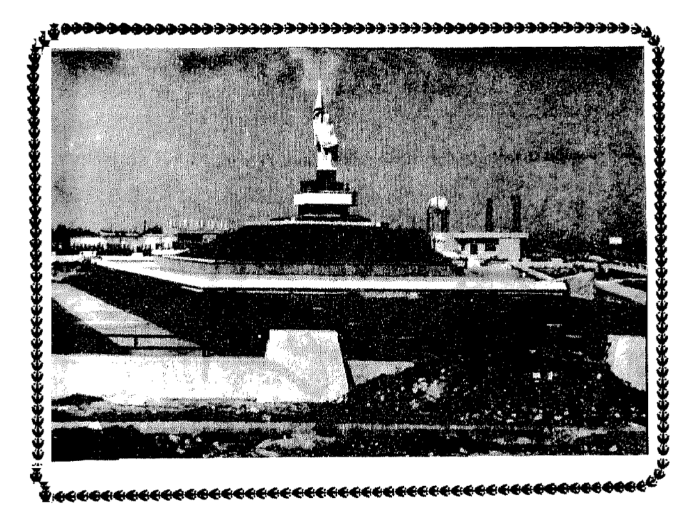
الطبعة الأولى

١٩٩١

عبد الرحمن أيوب



دراسة تاريخية عبر العصور



إنَّ بلادنا سورية مهد حضارات عريقة ، في كل طرفٍ من أطرافها وفي كل بقعةٍ منها آثار لهذه الحضارات ، التي لا يزال الكشف عنها مستمراً .

من كلمة ألقاها السيد الرئيس

حافظ الأسد

في مدينة بُون

عاصمة ألمانيا الاتحادية في ١١/٩/١٩٧٨م

المؤلف في سطور :

ــ من مواليد مدينة الرستن ١٩٣٦م.

ــ حصل على شهادة: الإجازة في الآداب ــ قسم التاريخ.

ــ لديه عدة أبحاث تاريخية.

ــ عضو الجمعية التاريخية في مدينة حمص...

الإهداء

إلى التي أراها شاخصة بأبصارها، مرهفة بأسماعها، أحس بدبيب قلبها، تَستْحِث ابنها وقلمه، ليتكلم عن جلالتها وعظمتها، أسوة بشقيقاتها الأخريات، لم يكتب أحدُ عنها مايشفي الغليل، فإليها أُهدي هذا الجهد المتواضع.

عبد الرحمن أيوب

الرستن ٢٨ــ٨ــ١٩٩٠

تقديم

بشير زهدي
الأمين الرئيسي للمتحف الوطني بدمشق
استاذ محاضر في جامعة دمشق

تعتبر مدينة الرستن من مدن القطر العربي السوري التي شهدت أحداث التاريخ منذ تأسيسها وتطورها في عهود قدماء العرب الأموريين والكنعانيين والآراميين والتدمريين والغساسنة والمسلمين، لما لهذه المدينة من موقع جغرافي متميّز وتربة حمراء وأرض خصبة جعلت أبناءها يتعلقون بأرضهم وينصرفون إلى العمل فيها بجدية ورغبة ومحبة متميزة.

وبعد الغزو المكدوني حرص السلوقيون على طبع سورية بالطابع اليوناني وذلك بتغيير الأسماء الجغرافية المحلية بأسماء يونانية، مما جعلهم يطلقون على هذه المدينة الجميلة اسم (أريتوزا) التي كانت ربة مياه تحدثت عن قصتها الأسطورية (الميثولوجيا)،

وذكرت أن (رب النهر) لحق بها حتى جزيرة (أورتيجا) مما جعلها تستنجد بربة الصيد والمياه (ديانا) التي حولتها إلى نبع مياه عذب...

وعندما استولى السلوقيون على سورية وقسّموها إدارياً إلى مقاطعات، جعلوا سورية الشمالية مؤلفة من: آ ـ سورية الأولى: مركزها أنطاكية وتتبعها مدن عديدة... ب ـ سورية الثانية Syria secunda مركزها (أفاميا) وتتبعها مدن الرستن وحماة وشيزر (لاريسا).

وإن عهد السلالة العربية (شمشيغرام) في حمص والرستن في أواخر العصر الهلنستي وبداية العصر الروماني يؤكد من جديد الدور العربي عصرئذ.

وقد اسهمت الأجيال المتتابعة في ازدهار مدينة الرستن، وتدل آثارها على أهميتها التاريخية والحضارية عبر العصور. ومن آثارها:

ـ تابوت رخامي ضخم جميل للحاكم المحلي وزوجته، يزين أحد وجوه هذا التابوت مشهد «معركة طروادة» الشهيرة بأسلوب فني يدل على قمة ما وصل إليه فن النحت البارز عصرئذ.

ـــ تابوت رخامي أبيض جميل يزين أحد وجوهه أسطورة الربة (ديانا) والشاب (ميلياغر) والوحش البري الذي ارسلته الربة.

ـــ تابوت آخر هام... أضف إلى ذلك:

ـــ لوحة فسيفساء هامة تمثــل جسر الرستــن على نهر العاصي بأسلوب فني جميل في عصر حرص فيه الفنان على تلبية المتطلبات الجمالية لمجتمعه بتمثيل (منظر نهر جميل) كأنه (نهر النيل)... كل ذلك يدل على أهمية تاريخ الرستن ونهضتها الفنية وإسهامها الحضاري...

ومن المعارك التي شهدتها الرستن تلك المعركة التي دارت رحاها بين (الإخشيد بن طغج) و(سيف الدولة الحمداني)، والمعركة التي جرت بين (جان بردي الغزالي) والسلطان العثماني (سليم الأول)، وبعدما انهزم الغزالي في حلب وحماة متراجعاً نحو دمشق مر بجسر الرستن وخربه لضرورات عسكرية... الخ.

وفي العهود العربية الإسلامية زار مدينة الرستن كثير من العلماء والصوفيين والرحالة الجغرافيين... وتحدثوا عنها بكثير من الإعجاب. ومن أولئك الصوفيين نذكر (طيفور بن عيسى أبو يزيد البسطامي) الذي اشتهر بأحواله الصوفية وأجمل الأقوال الروحية في



جزء من لوحة فسيفساء كاملة: اكتشفت في الرستن: تمثل نهر العاصي، يتهادى على مياهه، قاربٌ صغير الحجم، يضم أربعة أطفال مجنحة تمثل إله الحب كيوبيد، وبرجان يصل بينهما جسر خشبي وعلى جانبيهما مباني المدينة.

المحبة والمعرفة والفناء والبقاء وغير ذلك من علوم التدقيق والمكاشفات الصوفية التي تحدث عنها (أبو نعيم الأصفهاني، وابن خميس، والسلمي ...) لما تتميز به عباراته من قوة الرمز وحسن التعبير به بذكاء عن عاطفة روحية و رؤية صوفيه. وتنسب إليه الطريقة الصوفية المشهورة باسم (الطيفورية)، وإذا كان بعض المؤرخين يشك بصحة دفن (البسطامي) في الرستن فإن (جامع البسطامي) فيها يتميز بجماله المعماري وأهمية وجود ضريح البسطامي فيه، أضف إلى ذلك الكتابة التي تتضمن المنجزات في عهد والي بلاد الشام (عبد الله العظم) في الرستن: ١ — ترميم طريق الرستن. ٢ — ترميم جسر الرستن. ٣ — ترميم جامع البسطامي في الرستن...

ومن الرحالة الذين تحدثوا عن مدينة الرستن ومبانيها نذكر (ياقوت الحموي) الذي أعجب بها، وتحدث عن موقعها الجميل المشرف على نهر العاصي، وأهمية آثارها التي رآها خراباً... كما تحدث (أبو الفداء) عن الرستن التي كانت عامرة قديماً بينما رآها خراباً في عصره، وذكر آثار العمارة القديمة الجميلة، والجدران وأبواب المدينة وأسوارها المنيعة في جنوبي العاصي. وفي العصر العثماني زارها الرحالة (أوليا جلبي) وتحدث عن أهمية موقعها وجمال مبانيها وتردد الكثيرين على جامع البسطامي في الرستن... كما

تحدث المرحوم الأستاذ وصفي زكريا في كتابه (جولة أثرية في بعض البلاد الشامية ـــ تموز ١٩٣٤ ص٣١٣) عن الرستن ومشاهداته فيها وبخاصة في حيها القبلي، وآثار شارع مستقيم عريض ومرصوف يشبه الشوارع المستقيمة في مدن دمشق وتدمر وأفاميا، وإن قواعد أعمدته الضخمة كانت ما زالت ماثلة للعيان وتمتد مسافة ٣٠٠م ثم تختفي بين الدور السكنية الحديثة المختلفة التي في بعضها أنقاض مبنى حمام، وفي غيرها جدار ضخم كأنه أحد جدران حصن. وإن المرء حيثما اتجه يرى بقايا أعمدة أحدها من الغرانيت، وهناك أسس الجدران، وعتبات المباني، ومختلف الأحجار المنحوتة المهشمة... أضف إلى ذلك الأنابيب أو الأسطوانات الخزفية التي كانت تأتي بالمياه من مصادرها المختلفة... وأنه كان قرب الجسر (ناعورة كبيرة) تروي أرض (زور العاشق)، وكان في منخفض العاصي مبنى خان الرستن القديم من الحجر، أبعاده (٩٨م×٤٦م)، كان يعتبر من أملاك الدولة، وتأوي إليه القوافل المختلفة ولكن جهل البعض أدى إلى استخدام أحجار مبنى هذا الخان الأثري الهام في بناء مبنى مخفر الدرك. وكان أمام الخان (جسر الرستن) الذي ينسب ترميمه أو تجديد بنائه إلى سنان باشا في رأي البعض. وكان هذا الجسر يمتد من الغرب إلى الشرق مسافة ١٤٠م وعرضه ٤٫٥م وكان عدد قناطره

اثنتي عشرة قنطرة. وكان إلى جانب الجسر فتحات (سكوير) تتدفق مياه العاصي فوقها، وقد جعلت لحصر جانب من تلك المياه، وسيلان المياه إلى طاحونة قريبة من جنوبي الجسر... أضف إلى ذلك قناة مياه قديمة. وتجدر الإشارة إلى مبانيها الحجرية الجميلة القائمة فوق الجبل، والمشرفة على نهر العاصي في أجمل منظر للطبيعة الجميلة، تتمتع العيون برؤيته، فيثير في النفوس الغبطة والسرور والإنشراح. وإن الملابس المحلّية الزاهية الجميلة التي تتدثر بها نساء الرستن في ذهابهن وعودتهن تدل على ذوقهن الفني وحسّهن الجمالي. وإن نشاطاتهن المختلفة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية تدل على مدى اسهامهن الحضاري. وتجدر الإشارة إلى معمل توليد الكهرباء القديم عند منتهى الحد الغربي لأراضي الرستن وسد الرستن الهام من منجزات قطرنا في العصر الحاضر.

إن كل من زار مدينة الرستن، وعرف أهميتها الحضارية عبر العصور، كان يتمنى وجود كتاب يوضّح تاريخ الرستن وحضارتها ونهضتها عبر العصور. فبذل السيد المؤلف جهداً كبيراً في تأليف هذا الكتاب يتضمن كل ما يرغب في معرفته المواطن والزائر من معلومات تاريخية وميثولوجية وحضارية مختلفة، أضف إلى ذلك المنجزات الحديثة والمعاصرة في الرستن.

وأرى من واجبي الحضاري أن أشكر السيد المؤلف على

جهده الكبير، كما أشكر مؤسسة «دار طلاس» التي أخذت على عاتقها نشر هذا الكتاب الجديد والمفيد عن مدينة الرستن، وأني آمل أن تعقبه كتب جديدة ومفيدة. وأرى أن هذه الكتب من شأنها أن تلبي رغبة الإنسان في المعرفة والإطلاع، وتسهم في زيادة ارتباط المواطن بوطنه، وتنمية شعوره بالاعتزاز القومي.

بشير زهدي

دمشق ١٥/٨/١٩٩٠م

المقدمة

عذراً من القارئ الكريم إذا لاحظ حماسة من الكاتب نحو الموضوع الذي يتناوله، فأستميحه أنْ نرجع سوية إلى أبيات ابن الرومي، وابن الدمنية الخالدة...

على كلٍ إنَّ رائدي في الكتابة عن البلدة هو الحقيقة العلمية...

وموضوعنا يعتمد بالدرجة الأولى على المراجع والوثائق، وهي عزيزة بل نادرة كما لا يخفى...

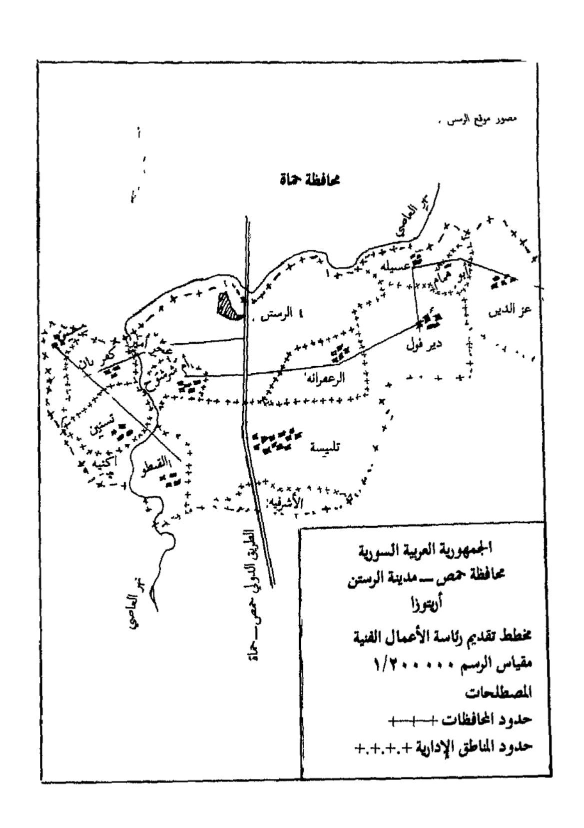
هذا بالإضافة إلى مقابلات شخصية مع المُعمّرين مِنْ أبناء البلدة، واستكتاب بعضهم عَنْ

أحداثٍ شاهدوها، أو سمعوا بها، أو شاركوا بها، بعد عرضها على محك النقد...

والفضل في الاهتمام بهذا الموضوع يرجع إلى قيادة الجيش العربي السوري، حيث كنتُ ممن ساهم في كتابة البحث الخاص عن منطقة الرستن... وتوابعها لمصلحة المعجم الجغرافي؛ فرأيت عظمة البلدة وآثارها الناطقة، بالإضافة إلى التقدم المدهش في كافة مناحي الحياة وخاصة في السنوات الأخيرة، تحت ظلال ثورة الثامن من آذار الوارفة...

وهدفي هو إظهار وكشف تاريخ هذه البلدة في الماضي والحاضر ووثيقة لجيل المستقبل... وخاصة أنَّ هذه البلدة أصبحت أعظم عضلة في الاقتصاد السوري الحديث، وشاهد على ذلك النمو الواضح في كافة مجالات الزراعة.. كما أنَّ هذه الدراسة المتواضعة عن البلدة، صيحة ودعوة إلى مديرية الآثار والمتاحف لأن تقوم ومتى تسنى لها الوقت والمال، بعملية سبر شاملة لمدينة الرستن الأثرية، الغافية على زند العاصي، وخاصة

أنْ اللقى الأثرية التي تَفْخَرُ بها المتاحف هي من الصدف وحدها ، وحتى لا تضيع هذه الكنوز الخالدة التي تحتفظ بسرها هذه الأرض المباركة ، لنرى صفحات الرستن التاريخية عبر العصور القديمة ، وحتى يتحقق هذا الحلم ، أرجو للقارئ صحبة ممتعة وهو يطالع الرستن في عدسة المؤرخين والرحالة والأحياء الباقين من أبنائها المُعَمرين .


مصور موقع الرستن
محافظة حماة
نهر العاصي
الرستن
عسيله
أبو همام
عز الدين
دير فول
الرعفرانه
كفرنان
أم شرشوح
تسنين
تلبيسة
الغنطو
أكنيه
الأشرفيه
الطريق الدولي حمص ـــ حماة
نهر العاصي
الجمهورية العربية السورية
محافظة حمص ـــ مدينة الرستن
أريتوزا
مخطط تقديم رئاسة الأعمال الفنية
مقياس الرسم ١/٢٠٠٠٠٠
المصطلحات
حدود المحافظات +—+—+
حدود المناطق الإدارية +.+.+.+

الرستن في سطور

ــ تقع الرستن في المنطقة الوسطى على نهر العاصي .

ــ تبعد عن حمص /٢٥ كم/ شمالاً وعن مدينة حماة جنوباً نفس المسافة تقريباً .

ــ ترتفع عن سطح البحر بحدود /٥٠٠ م/ .

ــ أصبحت الرستن منطقة عام /١٩٦٥ م/ بموجب المرسوم /٥٥/ وتاريخ ١٩٦٥/٩/٢٣ .

ــ سميت مدينة عام /١٩٧١ م/ بموجب قانون الإدارة المحلية رقم /١٥/ لعام /١٩٧١ م/.

ــ عدد النواحي التابعة لها :

ــ ناحية تلبيسة وتقع إلى الجنوب منها بمسافة /١١ كم/ .

ــ أهم القرى التابعة لها كما هو واضح في المُصوّر : عسيلة ، الزعفرانه ، عز الدين ، أم شرشوح ، غجر الأمير ، كيسين ، كفرنان ، أبو إمامة ، مريج الدر ، دير فول ....

ــ بلغ عدد السكان في الرستن لوحدها بدون توابعها وحتى نهاية ١٩٨٧/٨/٣١م /٢٨٨٨٣ نسمة/ .

ــ بلغ عدد المساكن /٨٧٠ مسكناً/ .

ــ تروي سهولها الخصبة قناة ري بالراح من بحيرة قطينة .

ــ تزرع بها الأشجار المثمرة بالدرجة الأولى وعلى رأسها الدراق ، ثم الكرمة .

ــ أما الزراعات الصناعية فأهمها : الذهب الأبيض /القطن/ ثم الشمندر السكري .

ــ هنالك شبكة من الطرق الفرعية مفروشة بالإسفلت تربط المزارع في الرستن ، مما جعلها تتقدم بصورة شاقولية .

ــ بالإضافة إلى الكهرباء التي بدأت تعم كافة

المزارع الواقعة غرب الطريق الدولي الذي يصل بين دمشق وحلب ...

ــ نادراً ما نجد مهاجرين في العالم الخارجي من الرستن، بعكس العهود السابقة للاستقلال، وخاصة العهد العثماني /١٥١٦ ــ ١٩١٨م/، حيث نجد كثيراً من أهالي البلدة في العالم الجديد وخاصة في الأرجنتين، والبرازيل، وبوليفيا، وانعدام الهجرة حالياً راجع إلى التقدم الاقتصادي، وانتشار التعليم وإزدياد الوعي القومي..

ــ أعظم تجمع للآليات الزراعية في القطر العربي السوري تركز في الرستن وتلك شهادة مهندسي الزراعة في المحافظة.

ــ لا يوجد مثيل لنشاط الفلاح في الرستن إلّا في جمهورية الصين الشعبية، حيث لا يأنف حتى الموظف الذي يملك أرضاً من العمل الزراعي، ويشعر بارتباطه بالأرض.. أكثر من الفلاح نفسه، وهذا راجع إلى إدراك قيمة الأرض والعمل الزراعي.

ــ يوجد بها مركز ثقافي ــ ومركز بريد وهاتف .

ـ بها ثلاث مدارس ثانوية ، وست مدارس ابتدائية .

ـ بالإضافة إلى ثانوية صناعية كلفت الدولة /١١/ مليوناً من الليرات السورية .

ـ بالإضافة إلى بقية مؤسسات الدولة الأخرى ..

قالوا عنها :

لم تكن حمص قبل العصر الروماني، وإنما كانت الرستن، المدينة الرئيسية وحدها في المنطقة من بين المدن التي أسسها سلوقس نيكاتور.

الأستاذ : كامل شحاده
في مجلة الحوليات الأثرية
المجلد ٣٢ عام ١٩٨٢

.. من المدن الهامة أيضاً في المحافظة ، مدينة الرستن الحاضرة التاريخية (أريتوزا) المدينة التي زَوَّدت المتاحف العالمية بالكثير من اللُّقى أهمها تابوتان حجريان ضخمان ، يمثل أحدهما معركة طروادة بمجموعةٍ من التماثيل الرائعة والتابوت الآخر يمثل اسطورة ملياكر الشهيرة . وهما موجودان في المتحف الوطني في دمشق .

الدكتور عفيف بهنسي

المدير العام للآثار والمتاحف في

كتاب : حمص التاريخ والعصر ــ ص ١٢٥ لأيوب سعدية

أريتوزا أميرة البحار :

« هناك جزيرة ممددة أمام الخليج الصقلي في مواجهة بليموريوم التي تلطمها الأمواج ، أسماها الأقدمون أورتيجيا ، من ذلك المكان ، كما تقول الرواية شق القيومى ــ نهر اليس ــ لنفسه مجرى حفياً تحت البحر ، ليمتزج الآن بأمواج صقلية بجوار نافورتك يا أريتوزا وصلينا كما أوصينا الآلهة المكان العظمى » .

الشاعر الروماني فيرجيل

في الانياذة ص ١٩٠

الرستن: الهوية التاريخية

لا بد قبل الكتابة الموثقة عن البلدة إلى حد ما، من الاعتراف أنَّ استيطان الرستن على شكل تَجَمُّع بشري متمدن وذات مخطط معماري إسوة بالمدن السورية العريقة في القدم، لا نجد لدينا إلّا القول المتعارف عليه بين المؤرخين، بأنها مدينة هلنستية، بنيت قبل الميلاد بثلاثة قرونٍ، ولعدم قيام سبر تاريخي شامل لها. لا يمكننا الإطمئنان لهذا الرأي، فمنذ عدة سنواتٍ عثرَ أحدُ المواطنين على لوحةٍ مسمارية ذات أربعة أسطر وأتحفنا بها، وقمنا وقتذاك بإعلام دائرة آثار حمص، حيث جاء مديرها والسيد رياض البدري اللذان استلما اللوحة حسب الأصول على أمل إمدادي بترجمةٍ لها، لنقف على بعض أحداث البلدة، كما أنَّ مديرية الآثار قامت مشكورة بزيارة الموضع الذي زعم أنَّ اللوحة وجدت فيه. ومن جهة أخرى ففي أثناء فحصي البصري الشامل لمباني

البلدة الأثرية، شاهدت بعض الخراطيش والتي تحوي آثار كتابة يونانية... ولكن السيد يوسف اليان سركيس /١٨٥٦ ـ ١٩٣٢م/ خالف مؤرخي اليونان والرومان، فذهب إلى أنَّ بناءها أقدم عهداً مما ذكر... بدليل وجود آثار حجرية عليها كتابة تشبه الهيروغليفية[1] فإذا صح هذا في المستقبل تكون الرستن واكبت ظهور الحثيين على المسرح البشري /١٧٥٠ق.م/ وإذا أثبتت الأيام صحة هذا الافتراض، فتكون البلدة قد شاركت في أحداث العالم القديم آنذاك... كالصراع الحثي ـ المصري الذي تَمثَّل في معركة قادش /تل النبي مندو/ حيث توطدت الأطماع الأرضية للدولتين: بخط يمتد من /جبيل/ على البحر الأبيض المتوسط غرباً إلى الشرق جنوب قادش؛ فالمصريون أصبح بحوزتهم جنوب الخط، والحثيين تركزت أطماعهم شمال الخط الوهمي، والدليل على ذلك أنَّ المشرفة /قَطْنَة/ بقيت تحت النفوذ الحثي.. وكان عربون معاهدة الصلح بين الدولتين زواج الفرعون المصري رعمسيس الثاني /١٢٩٢ ـ ١٢٢٥ق.م/ مِنْ إبنة ملك الحثيين، إذا ما دمنا لا نملك حالياً إلَّا الدليل الواضح على هوية البلدة الهلنستية، فلنشرع إذاً بالتعرف على تأسيس مدينة /أريتوزا/ وسيرها وجذورها الضاربة في أعماق التاريخ...

---

١ ـ تاريخ حمص القديم ـ الخوري اسعد /ص ٢٤٧/.



كتابة تذكارية على باب مسجد أبي يزيد البسطامي

الرستن في عصور ما قبل التاريخ
/٣٢٠٠ ق.م/

إذا أخذنا بالمبدأ القائل:

«إنَّ أول صرخة تضرع أطلقها الإنسان للقوى الإلهية لم تكن صرخة عابد يطلب خلاص الروح، بل صرخة جائع يطلب حفظ الحياة في الجسد»(٢)

أدركنا سر عظمة موقع الرستن الجغرافي للإنسان القديم وسكناه، فهي تتميز بالصفات الفريدة التالية:

ـــ هضبة ترتفع عن سطح البحر بـ /٥٠٠ م/ تحيط بها الوديان السحيقة من جهاتها الثلاث وتبقى الجهة الجنوبية المتصلة بالسهول المترامية الأطراف والتي كانت غنية بأشجار الزيتون والكرمة، تشهد على ذلك الجرار الفخارية والأجران والمعاصر الحجرية...

---

٢ ـــ لغز عشتار ـــ فراس السواح /ص ٢٧٩/.

ويغسل أقدامها نهر العاصي /الأورانتس/ والينابيع الكثيرة، تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم، وبعض الكهوف الطبيعية، وكما هو معروف فإنَّ مناهل الماء تلك كانت مجمعاً لحيوانات الصيد لتروي ظمأها بعد تجوالها في بريَّة الله الواسعة، فتوفر على الإنسان ساكن الكهوف قبل /٦٠،٠٠٠/ سنة ق.م في العصر الآشولي مشقة عظيمة عندما كان ساكن هذه البقعة جماعاً للقوت.

ودليلنا على ذلك كثرة الطرائد البرية في تلك الأزمان الموغلة بالقدم.

إنَّ فارس شيزر، وسيد فرسان العرب المسلمين في العصور الوسطى، أسامة بن منقذ /١٠٤٥ــ١١٨٨م/ روى لنا في كتابه «الاعتبار» كثيراً من الأحداث الشيقة حول صيد الأسود والسباع والطيور، وغيرها في منطقة شيزر، أو في بلاد الشام الأخرى، أو في مصر... هذا ولا يفصلنا عن عصر أسامة إلَّا مئاتٍ من السنين[٣].

بالإضافة إلى نبات الشوفان البري الذي كان إلى عهدٍ قريب ينمو على ضفاف العاصي المرتفعة. فقام إنسان الرستن بنحت كهوفه

٣ــ أسامة بن منقذ /ص٢٤٥/.

على مقربة من العيون الجارية ، وجعل أبواب معظمها متجهة إلى الشرق لاستقبال أشعة الشمس في الصباح .

فعلى نهر العاصي قام العالم الأثري فان لير / van leur / باكتشاف أدوات حجرية في السفوح العليا للوادي ، وأرجعها إلى العصر الفيلفرانشي المتأخر / أوائل البلايستوسين الأوسط / ضمن طبقة رقيقة من الحصى ، ترتفع / ٧٠ م / عن سرير النهر ، وتأخذ شكل مكاشط ونصال وشفرات ، استدار معظمها بسبب انتقالها ضمن المياه الجارية ، ويمكن اليوم العثور على بقاياها على سفوح العاصي قرب السَّد ، حيث شُق طريق بعمق عدة أمتار ضمن المصطبة النهرية العائدة لتلك الفترة(٤) .

ومن ملاحظتنا لبعض أدوات الإنسان القديم الحجرية والصوانية نرى أطوار تقدمه التقني في تشذيبها وخاصة المكاشط الحجرية المدهشة ذات الحرف الحاد .. ويعجب الإنسانُ وهو يتأمل تكوينها حتى لكأنَّ المرء يحسبها قد خرجت لتوها من تحت يد صانعها الماهر .

ونقول نظراً لفقدان الدراسات الأثرية عن الرستن ، فإننا لا نتمكن من تقديم بحثٍ عنْ إنسانها الذي عاش في مختلف حقب

---

٤ ــ الحوليات الأثرية ــ مجلد ٢ / دمشق ١٩٦٦ / .

التاريخ، قبل إيجاد الكتابة ودخوله التاريخ المكتوب والمقدر من قبل العلماء بـ ٣٢٠٠ ق.م.

الرستن / أريتوزا /
توطئة تاريخية للتأسيس

« فلنفكر أنَّهُ بقي بعد نهب المكدونيين لقصر اقباتان من المعادن الثمينـة ما مكـن القائديـن: أنتيقـون وسلـوقس من الحصول على /٤٠٠٠/ تالان زنتها /١٤٠/ طناً ... »[٥]

مقولة متداولة بين بعض المؤرخين الشوفنيين في الغـرب ،أنَّ الشرق شرق والغرب غرب لا يلتقيان وأنَّ الحروب التي دارت رحاها منذ أنْ شنَّ الإنسانُ الحرب على أخيه الإنسان ، وسموها الصراع الدولي حسب القارات . فقارة آسيا أغارت على قارة أوروبا وأخذت بثأرها على يد اليونان ، ثم الرومان . إلى أنْ زحفت آسيا على أوروبا بزعامة العرب المسلمين ولو فاز أجدادنا العرب في معركة بواتيه /تشرين الأول سنة

٥ ــــ التاريخ الحقيقي للعرب /بيير روسي/ص١٥٩/.

٧٣٢م/ لكان تاريخ أوروبا أخذ مساراً غير الذي ندرسه في بطون الكتب .

وهكذا ضِمْنَ هذه الدَّوَامة التي يصاب فيها الفكر البشري بالدوار ، فإنَّ حروب الفرس واليونان أرجعها المؤرخون القدماء كما هي عادتهم إلى عواملٍ شخصية وعلى رأسهم أبو التاريخ هيرودتس /٤٨٤ ــ ٤٢٥ ق . م / ، ولكن المتصفح للأحداث التاريخية يرى أنَّ وراء الحروب التوسعية مصالح مادية وهيمنة استعمارية لا شك في ذلك .. والتاريخ الكونيالي شاهدٌ على ما نقول ..

إنَّ مضيق الدردنيل الواصل بين البحرين الأبيض والأسود .. كان هو المحرك الأساسي للحروب بين الفرس واليونان ، هذا المضيق الذي يتحكم في واردات دول المدن اليونانية والفنيقيين من الحبوب على سواحل البحر الأسود جنوب روسيا ، فحرب اليونان ضد طروادة المتحكمة في المضيق أعوام /١١٩٣ ــ ١١٨٤ ق . م / هدفها إزالة إشراف طروادة على شحن القمح إلى العالم الهليني ، ثم طمع الفرس بالسيطرة على المدن الأيونية الواقعة على بحر إيجه ، جعل إحتكاكهم مع اليونان أمراً لا مفرَّ منه .

وقد تباهى « أرسطو غوارس » طاغية / ميلتوس / بين مواطنيه

بأنه لم يقطع الجسر أو الجسور التي مر عليها / دارا الأول / ملك الفرس أثناء تراجعه وانسحابه من جنوب روسيا بعد فشل حملته على بلاد السَّكَيثْ[٦].

وقد طمعت الدول الأيونية بالثورة للتخلص من النير الفارسي، الذي دعم التجارة القرطاجية في الغرب والفنيقية في الساحل السوري فوق مياه البحر الأبيض المتوسط.. وقد فشلت هذه الثورات وأخمدها الفرس بقسوةٍ بالغة.. رغم مساعدة أثينا وأسبرطةٍ لها.. وقد أقسم الملك الفارسي بالانتقام من أثينا لمساعدتها الثوار، وقد حدثت معارك عديدة بين الفرس واليونانيين. أهمها المارثون، وسلاميس البحرية وترموبلي /٤٨٠ ق.م/ التي قتل فيها ملك أسبرطة /ليونيداس/ ونُصِبَ له وأعوانه الـ /٣٠٠/ جندي أسبرطي تذكاراً في أرض المعركة نقشوا عليه: «أيها الغريب إذا مررت بأسبرطة فقل للذين هناك إننا راقدون في هذا المكان امتثالاً للقوانين التي فرضوها».

ذلك لأن الجندي الأسبرطي كانت تربيته العسكرية تقضي بأن يعود إلى أسبرطة إما حاملاً أكاليل الغار والنصر، وإما محمولاً على ترسه المجدول من الخيزران... وهكذا دار الزمن وتسلم مقاليد الأمور في

---

٦ ـــ التاريخ اليوناني / آمالي حامعية / دمشق ١٩٦٦/.

مكدونيا / فيليب / الذي وَحَّدَ العالم اليوناني بعد معركـة / خيرونـة ٣٣٨ ق . م / وقد وقَّع فيليب صلحاً مع الفرس ، وعندما اغتيل الملك الفارسي / آرتا سرخس الثالث / بيد / بوغوص / الذي رفع إلى العرش الإمبراطوري ضابطاً في الحرس الإمبراطوري باسم / داريوس الثالث / واعتُبِرَ داريوس المذكور بنظر خليفة فيليب / الاسكنـدر / مغتصبـاً للحكم ، وانقسمت الإمبراطورية الفارسية إلى موالٍ للملك المكدوني الذي خلف أباه والمطالب بالشرعية والحزب المغتصب الذي يمثلـه داريوس [٧] .

وقبل الاصطدام في معركـة ايسوس / ٣٣٤ ق . م / في شمال سورية طالب المغتصب بالمفاوضة ، ولكن أنصار الشرعية ، كما نقول اليوم ، وهم الذين كانوا في ركاب الاسكندر ، رفضوا المفاوضة وطالبوا بالقتال .... لأخذ الثأر ، وعلى هذه الشاكلة كان في جيش الاسكندر ، كما يُرْوى مُعارضون لداريوس ، وعلى أثر معركة ايسوس وأربيل في العراق ، وهيدابيس في البنجاب الهندية ، اكتسح الاسكندر إمبراطورية الفرس ، وقد واكب العاهل الشاب العلماء والفلاسفة والمهندسون والأطبـاء والتجار وأصحاب الرقيق واستولى على خزائن ملك الفرس وأراد صبغ هذا الشرق بصبغة عالمية .. ولكن لم يفسح الأجل لتحقيق أمنيتهُ فمات

٧ـ التاريخ الحقيقي للعرب / روسي / ص ١٧٩ /

في بابل عام /٣٢٣ ق . م / وقد نُقِلَ جثمانه إلى الاسكندرية بعد غمسه بالعسل ليمنع تَفَسُّخُهُ وذلك من قبل أحد قادته وهو بطليموس لتحقيق الشرعية لحكمه في مصر(٨).

وقد اطلعَ اليونانيون في الشرق على حيوانات مجهولةٍوثمار جديدة ، وبترول وذهب ، فوُجئت جيوش الفاتح خلال الحملات بوجود الكثير من الأشياء المجهولة بالنسبة لهم.. منها اتساع الإمبراطورية الفارسية والجبال الشاهقة ، والأنهار الضخمة وعظمة النفس الإنسانية ، ولا سيما ما لمسوه من عقائد ابراهما التي كانت تحثُ على حرق الذات تضحية للآلهة وكذلك الفيلة الآسيوية ، والنمور البيضاء والأفاعي الغريبة ، كالأفعى الزرقاء ذات الأجراس ، والنباتات والثمار الجديدة مثل الدراق والكرز ، والمشمش ، وقد نقلوا فيما بعد كل هذه الزراعات إلى الغرب ، إضافة إلى تماسيح الماء في نهر الغانج ، وحيتان المحيط الهندي ذات النوافير البخارية ، ولقد استولى الاسكندر على خزائن الذهب وعرف اليونانيون غنى هذه المناطق بذلك المعدن.. الذي كان يعتبر بحقٍ عند القدماء ذو قيمة سحرية ، كما كان الناس يعتقدون أنَّ وضع الذهب في القبور يؤدي إلى تدفئة الأموات ، واعتبروه أيضاً من عناصر الخلود(٩) .

٨ــ العلاج بعسل النحل / مايويريش / ص ٩٦ ترجمة / محمد الحلوحي .

٩ــ مجلة / ايستوار / الفرنسية ت ٢ ١٩٨٣ ترجمة محمد الدبيا .

وظهرت نتيجة احتكاك الشرق مع الغرب حضارة جديدة أطلق المؤرخون عليها / الحضارة الهلنسية / حيث تألّقت الفلسفة والآداب والشعر والنثر وأخذ الأدباء والمفكرون المنحى العالمي في إبداعهم الفكري.. وقد عبَّر عن هذه المرحلة أصدق تعبير الشاعر السوري ميليغير Meleagre / ١٤٠ ــ ٧٠ ق. م / :

«صورة القابعة في البحر مهد طفولتي جدره / ام قوس / السورية في موقعها، الإغريقية في حضارتها مولدي. وهل من عجب أنني سوري؟؟.. أيها الغريب إننا نعيش في بلدٍ واحدٍ : العالم. ألسنا نحن البشر جميعاً أبناء الفوضى؟ في شيخوختي كتبت هذه الأسطر قبل أن أوارى التراب. لأنَّ الشيخوخة والموت جاران قريبان»

«صورة ربيبة السماء حضنتني يافعاً، وتربة جدره / ام قوس / المقدسة غذتني شاباً، وجزيرة قوص الحبيبة رعتني شيخاً، إنْ كُنْتَ سورياً فعليك مني السلام، وإنْ كُنتَ فنيقياً فلك مني التحيات.. وإنْ كنت إغريقياً فمرحى بالله عليك إذا مَرَرْتَ بهذا القبر فردد ما قلته»(١٠).

وأُسِسَتْ المدنُ الجديدة، وساد السلامُ وتطورت التجارة

١٠ ــ لسان في التاريخ / فيليب حتي / ص ٢٨٥/.

الدولية، ومن الملاحظ أنَّ سكان الريف لم تنلهم الحضارة الهلستية كما حدث في المدن.. حيث سادت اللغة الإغريقية لغة الفاتحين والإدارة والسياسة...

واستطاع قواد الاسكندر أنتيقون، وسلوقس وبطليموس التخلص من أخ الاسكندر /أرهيدى/ وإبنه الذي ولد من إبنة الملك داريوس، الاسكندر الثاني ثم قتلوا والدته. وهكذا خلا المسرح السياسي لهؤلاء القواد، واجتمعوا على الأرجح قرب بلدة القصير في سورية واقتسموا ميراث الاسكندر الواسع[١١].

وقد أنهك التنافس هؤلاء القواد الثلاثة... وخلفاءهم، مما أتاح لمنافسيهم الرومان الذين جاء دورهم على المسرح التاريخي، فاحتلوا بلاد اليونان بالذات.. ثم فتح بومبي القائد الروماني سورية /٦٤ ق.م/ ومصر عام /٣١ ق.م/ وهكذا بَدَّلتِ البلاد العربية فاتحاً بفاتح...

وفي العصر الهلنستي هذا /٣٢٠ ـــ ٦٤ ق.م/ قام الإغريق ببناء المدن الجديدة، وأطلقوا عليها أسماء يونانية، وعلى المدن العامرة، فالرستن حُرِفَتْ إلى أريتوزا، وحمص إلى أميسا.. الخ، كما قال بذلك السيد يوسف إليان سركيس الآنف الذكر بالنسبة إلى اسم الرستن...

---

١١ ـــ تاريخ حمص القديم ـــ ص ٢٥٠/.

أريتوزا : التأسيس

اشتهر السلوقيون ببناء المدن واسكانها بالإغريق لصبغة البلاد بالصبغة اليونانية ، ومن أهم المدن التي شادها الفاتحون هؤلاء في سورية أنطاكية ، اللاذقية ، آفاميا ، والرستن /أريتوزا/ وكان من عادة السلوقيين عند بنائهم لإحدى المدن اتباع ما يلي :

ـ إختيار موقعها إما على الهضاب أو ضفاف الأنهار أو في الواحات أو على ساحل البحار وذلك من أجل غايات دفاعية بحتة ومن أجل غايات تجارية .

ـ وتقسم المدينة إلى مربعات صغيرة شبيهة برقعة الشطرنج حددت عليه مواقع الأبنية العامة كالقصور والمعابد والملاعب والمسارح وحلبات السباق وإحاطة المدينة بسور قوي يساعد على رد هجمات الأعداء .

ـــ وكانت الأبنية تشغل مربعات صغيرة تُطِلُّ واجهاتها على شوارع مستقيمة تشكل في تقاطعها مع بعضها زوايا قائمة ، هذا فضلاً عن وجود الأروقة على جانبي كل شارعٍ ، وهي فوق الأرصفة التي كانت تُخصص في العادة للمارة . «وقد زُوِّدَتْ هده المدن بالمياه وزينت بالأشجار .... »

ـــ وبعد الإنتهاء تقام حفلة التدشين حيث تقدم أضحية بشرية بعد إقامة طقوس دينية يحضرها الملك والضباط والكهنة[١٢] ..

وهكذا شيّد سلوقس نيكاتور آفاميا والرستن في سنة واحدة على الأرجح ، الأولى دعاها على اسم زوجته والثانية / أريتوزا / على اسم إحدى آلهات الماء في الأساطير اليونانية ، أو على اسم مدينة في مكدونيا .. وأنا أميل إلى الرأي الأول ، وهكذا قامت البلدة الشامخة الإغريقية مُخططها ، ومما يلاحظ أنه في جوار الرستن غابة من القرى المندثرة .. في غابر الأزمان ، تتمثل في الخرائب ، وعلى سطحها يُشاهَد المطاحن الحجرية ذات الطراز الذي ظهر في قرية / قمران / في فلسطين على شاطئ البحر الميت .. وكما ورد آنفاً أنَّ هنالك رأياً يخالف ما درج عليه المؤرخون القدامى ، وخلاصته أنَّ الرستن مدينة حثية لوجود كتابة تشبه الهيروغليفية . على كلٍ إن هذا متروك للمستقبل ....

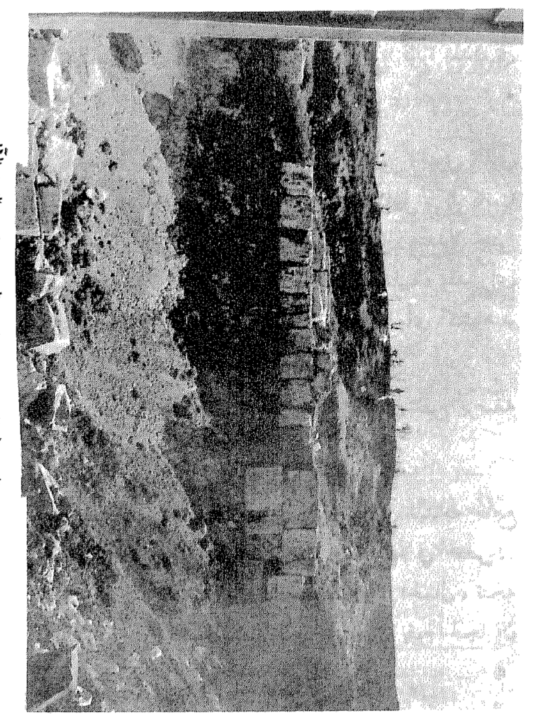
---

١٢ ـــ تاريخ الحضارة : الدكاترة عاقل / حاطوم مدني / ص٤٨٨ / .

أريتوزا في العهدين اليوناني والروماني

وإذا سرَّحْنا البصر في بلدة الرستن /أريتوزا/ نلاحظ أنَّ كافة الشروط المذكورة سابقاً تنطبق عليها، فهي على هضبة مرتفعة والماء حولها وفير، وإذا أُحِيطَتْ بسور أصبحت أمنع من عقاب الجو، ولا يماثلها من قلاع القطر العربي السوري سوى قلعة الحصن، وإذا تَجَّولَ الإنسان في شوارعها راعه كثرة الأعمدة الغرانيتية والكلسية المحطمة والملقاة أرضاً، بالإضافة إلى بقايا أقسام من سورها في الجهة الجنوبية والغربية على الخصوص..

وهنالك في أقصى الطرف الجنوبي الغربي مقابل الفرن الآلي شرقاً، أزاحت مديرية الآثار عام ١٩٧٧ م التراب عن بقايا برج دفاعي تتمثل في حجارته الصحمة الجهد الإنساني.



البرج الدفاعي جنوب غرب الرستن (قرب الفرن الآلي)

والقادم من حمص إلى البلدة سيسير على نفس الطريق الذي كانت قائمة حوله الأعمدة المزينة بالتيجان، وكانت تَعْبُرُهُ قديماً المركبات الحربية والفرسان والتجار عندما كانت أريتوزا لؤلؤة المدن في المنطقة الوسطى..

وعلى بعد /٤٠٠ م/ من باب حمص من السور الجنوبي الذي لا تزال آثاره ماثلة للعيان، نصل إلى المصلبة أو / التترابيل / كما كانت تدعى قديماً. ومن المدهش أنَّ الاسم: المصلبة لا يزال متداولاً حتى اليوم على ألسنة السكان. وقد حُرِّفَ إلى لفظة: الصليبة، وقد رأى بلاط هذا الشارع المرحوم وصفي زكريا وسجل ما رأى كشاهد عيان:

«شتَّان ما بين القديم الميتْ وبين الجديد الذي تقوم برصفه بلدية الرستن»[١٣].

ومن الملفت للنظر أنَّ معظم أحجار البناء الذي شيِّد به جامع الصحابي الجليل خالد بن الوليد المتوفى عام /٦٤٨م/ في حمص.. مجلوبة من أريتوزا عندما كان سكانها قلائل وكانت قوافل الجمال، تتجه من حمص إلى البلدة لتعود بشحنتها من الأحجار بعد أنْ يقوم الحجارون

١٣ـ نزهة أثرية في البلاد الشامية / المرحوم وصفي زكريا / ص ٣٠٤/.

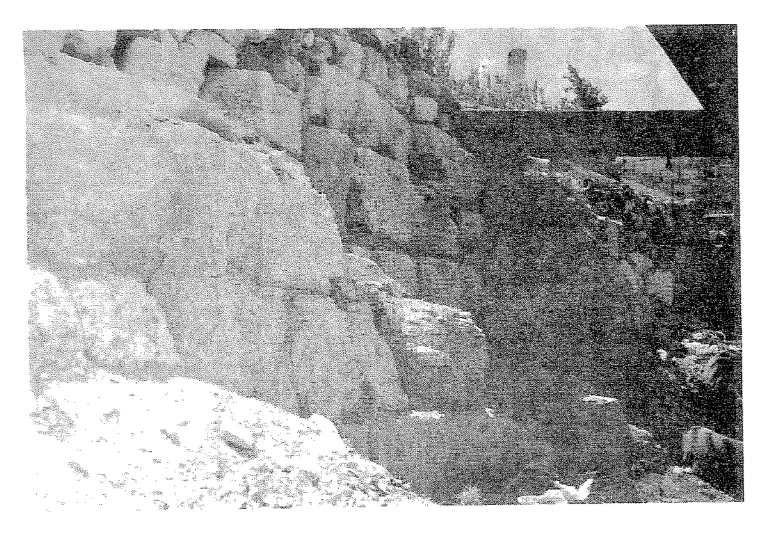
بتكسير الأعمدة وتقسيمها إلى قطعٍ متماثلة، وقد هُدِمَ كثير من الأبراج الأثرية وغيرها، وهذا سائح ألماني قال في وصفها: «إنَّ بقايا جلالتها القديمة هي حطام أسوار وبرجين وبعض أسس الأبنية وأكوام الحجارة»[١٤].

والسيد وصفي زكريا المذكور آنفاً قال في وصفه لها: «الرستن بلدة قديمة بين حمص وحماة، في منتصف الطريق، فيها آثار باقية تدل على عظمتها وهي في علوٍ تشرف على العاصي وآثار العمارة والجدران وبعض البيوت فيها ظاهر».

«كذلك بعض أسوار المدينة وأبوابها وقنيها وهي في جنوب نهر العاصي على جبل وثمة في بعض الدور حمام، وفي غربها جدارٌ ضخمٌ ثخين كأنه من جدران الحصون أو البيع. وكيفما التفتَّ تجد كثيراً من كسور الأعمدة وفيها واحدٌ من الحجر المحبب وأسس الجدران والعتبات والأحجار المنحوتة والمتهشمة والأسطوانات الخزفية التي كانت تأتي بالماء من أماكن مجهولةٍ، مما يدل على ما كان لهذه البلدة من العمران»[١٥].

وإذا وقفنا في استراحة محطة هذا النص، واجهتنا عدة

١٤ ـــ مجلة المقتطف / شارل وكر / ٣٢ ص ١٠٠٠/.
١٥ ـــ نزهة أثرية / ص ٣٠٤ بتصرف/.



بقايا جدار السور الغربي في الرستن

ملاحظات ، فالرستن عندما زارها المرحوم وصفي زكريا كانت بعض معالمها قائمة أو جزء منها على الأقل تشهد على عظمة البلدة القديمة. وأهم هذه المعالم أسوار المدينة الهائلة ، أما الآن فقد أصبح معظمها أسساً للأبنية التي شُيِّدَتْ فوقها عندما أصاب البلدة رياح التجديد العمراني وخاصة في السنوات الأخيرة .. والنقطة الهامة في النص الأثري المذكور : هو بقاء قناة مياه الشرب للبلدة أو قسم منها ماثلاً للعيان طوال هذه العصور وقد رأيت أحد المواطنين ممن يقع عقارهم بإزاء أرضية القناة ، يقوم بإزالة قسم من أرضيتها بواسطة المطرقة والإزميل ، لتحديد شبكة مياه لبنائه.

أما خَزَّان الماء الذي كان يمون مدينة أريتوزا قديماً ، فقد أقيمت مكانه دار المواطن / مروان الأشتر / ولا تزال فتحات الخزان ماثلة إلى اليوم يحميها بناء المواطن المذكور. أما الاسطوانات الخزفية فللقارئ الكريم صورة لها. والماء الذي أبهم على وصفي مصدره ، فقد اتضح مؤخراً أنه كان آتٍ من بحيرة قطينة وفي السنوات الأخيرة قام أحد الباحثين العرب بدراسة لربوع محافظة حمص ، ولما شرع بتسليط الضوء على الرستن ، استبدت به الحماسة وانثالت على قلمه الفَّياض العبارات التي تدل على عمق ما تركته البلدة في أعماق قلبه من الغبطة والحبور فقال : « تنتصف بلدة الرستن الطريق بين حمص وحماة ، حيث يمر نهر



أحد أنابيب المياه القديمة...

العاصي، وقد تَعمَقَ مجراه عن السهول المجاورة حوالي /٧٠م/ ورسم انعطافاً نحو الجنوب والشرق».

اختار ساكنو الرستن /أريتوزا/ الأوائل السفح الأعلى الشرقي لهذا المنعطف وبنوا بيوتهم من الحجر البازلتي الأسود والْمُوشَّى بالحجر الكلسي الأبيض، وقد سبقهم قبل إنجاز مساكنهم هذه، ساكنو الكهوف الذين تركوا آثارهم من الأدوات الحجرية على جوانب الوادي.

«تأخذ الرستن في امتدادها الأصيل إتجاهاً شمالياً جنوبياً بطول /١ كم/، وعرض وسطي في قسمها الشمالي يقارب /٢٠٠م/، حيث تحف بها المنحدرات من كافة الجوانب، باستثناء الإتجاه الجنوبي. وتترامى المساكن وتتعرج الأزقة، ويصل مسار قسم كبير منها إلى نهاية مسدودة. لم يبق من وصف الطرق والأزقة شيء، حيث قامت البلدية في السنوات الأخيرة ببناء جُدران استنادية، وشوارع حديثة تعطي أبنية الرستن الحجرية السوداء، مظهراً فريداً نادراً يزيده شموخ ارتفاعها التضاريسي جمالاً».

وإذا مازرت طريقها المُدرَّجَ المساير لطرفها الشرقي ووادي العاصي السحيق شعرتَ وكأنكَّ تحلمُ في جو قلاع الفرسان الغابر، حيث الهدوء والخضرة والطبيعة الفتانة النضرة[16].

١٦ــ ربوع محافظة حمص / الدكتور عماد الدين الموصلي/ص٤٢٨/.

منحدرات تحيط بالرستن من الشمال

وفي العصور الوسطى /٤٧٤ ـــ ١٤٥٣م/ التي احتدم بها النزاع بين الصليبيين الغزاة والعرب المسلمين، المدافعين عن أوطانهم ... ضد الغزاة الوافدين من وراء البحار قام أحد الأندلسيين برحلة إلى المشرق العربي عام /٥٧٨هـ/ وأنهاها عام /٥٨١هـ/ الموافـــق /١١٨٢ ـــ ١١٨٥م/ وهو الرحالة الورع: محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي الشاطبي البلنسي ـــ نسبة إلى مدينة بلنسية والتي لا تزال أقنية الري العربية وفتحة المياه باقية إلى اليوم في إسبانيا ـــ وكان هدفه الأول زيارة مكة المكرمة، لأداء فريضة الحج، فعندما غادر مدينة حماة متوجهاً إلى حمص قال:

«ثم رحلنا /عشي السبت/ وأسرينا الليل كله وأجزنا في نصفه هذا النهر العاصي المذكور على جسر كبير معقود من الحجارة .. وعليه مدينة رستن وآثارها عظيمة ويذكر الروم القسطنطينيون أنَّ بها أموالاً جُمَّة مكنوزة والله أعلم» ويتابع الرحالة العربي قوله: «فوصلنا إلى مدينة حمص مع شروق الشمس من يوم الأحد، الموافي للعاشر من ربيع الأول وهو أول تموز /يوليو/ فنزلنا بظاهرها بخان السبيل»(١٧)

ومما يلفت النظر في هذا النص التاريخي الفريد هو ذكره لخراب

١٧ ـــ رحلة بن جبير/ص ٢٣١/.

بلدة الرستن بناءا على أمر الخليفة عمر بن الخطاب ، وهذا الخبر الذي انفرد به إبن جبير يخالف الحقيقة والواقع، خاصة أنَّ الرستن واقعة ضمن أرض زراعية خصبة والماء كافٍ ، والذي يُحير في خرابها أنَّ إبن الشحنة روى في تاريخه : أنه في سنة /١١٠٢م ــ ٤٩٦هـ/ أي قبل قدوم إبن جبير بثمانين سنةٍ، نازل الإفرنج الرستن، ثم رحلوا وخرجوا من تل باشر وأغاروا على بلد حلب الشمالي وأحرقوه[١٨] .

فهل غياب السلطة القوية في ذلك التاريخ، جعل البدو الضاربين على أطراف القرى الشامية، يحولون دون عمران هذه القرى الخصبة. وقد عثرتُ على نصٍ هام يعلل السبب في خراب الرستن وغيرها، ولكنه ينطبقُ على العهد العثماني /١٥١٦ ــ ١٩١٨م/.

وأشهر من كان في جنوبي الشام وأقوى العشائر وأرفعها شأناً ، عشيرة السرحان، ثم عشيرة السردية التي نازعت السرحان وخلَفْتها وبزتها، وترأست حِلْفاً رباعياً اسمه /أهل الشمال/ كان مؤلفاً من السردية والفحيلة والعيسى وبني صخر، وكان هؤلاء كلهم مع أفاريق الأعراب الذين يجاورونهم أو يحالفونهم يقومون بضروب العبث، كلما اهتبلوا الغرر من ضعف الحكام وفقدان الرادع، ويحولون دون العمران

١٨ــ تاريخ حمص القديم/ص٢٤٧/.

وامتداد الحرث والزرع خارج المدن الشامية. وقد ذكر السائح التركي أولبا حلبي، أنَّهُ لما مَرَّ من حماة إلى حمص في القرن الحادي عشر سنة /١٠٥٨ هـ/ وَجَدَ الرستن خراباً يباباً من توالي عبث الأعراب، على حين أنَّ الرستن قرية كبيرة وقتئذٍ، فكيف ببقية قرى حماة وحمص.

«والسائح فولني.. مر بحماة في أواخر القرن الثاني عشر سنة /١١٩٩ هـ/ فَمَدَحَ خَصْبَ سهول حماة واستعدادها، ثم قال أنَّ المانع لاستثمار هذه السهول، هو عُتُوُّ محمد الخرفان أمير الموالي. وعبثه وكُثْر أخذ الأتاوات /الْخُوَّة/ من القرى والمزارع»[١٩].

وقد مَرَّ العلامة المؤرخ والجغرافي شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت إبن عبد الله الحموي الرومي البغدادي المشهور /١١٧٩ ــ ١٢٢٩ م/ ــ ورد اسمه في المنجد يعقوب ــ بالرستن فقال عنها في معجمه الشهير: الرَسْتَنْ بفتح أوله، وسكون ثانيه، وتاء مثناة من فوق، وآخره نون، بُلَيْدَة قديمة كانت على نهر الميماس، وهذا النهر هو اليوم المعروف بالعاصي، الذي يمر قدَّام حماة، والرستن بين حماة وحمص في نصف الطريق، وبها آثار باقية إلى الآن تدل على جلالتها، وهي في عُلوٍ يشرف على نهر العاصي[٢٠].

١٩ ــ قبائل الشام وعشائرها /وصفي زكريا/ ص١٠٣/.
٢٠ ــ معجم البلدان /ياقوت الرومي الحموي/ ج٣ ص٤٣/.

الجسر والخان والطاحون

ونستمر في تقديم هذه اللوحة القلمية للرستن عبر مسيرتها المديدة، فالمؤرخ عماد الدين إسماعيل ملك حماة الأيوبي قال عن الرستن: «الرستن كانت عامرة في قديم الزمان، وهي اليوم خراب، وبها بيوت كالقرية، وآثار العمارة والجداران وبعض البيوت بها ظاهر. **ويُقَالُ أنَّ خراب البلدة من زمن فتح الشام»**[٢١] .. **ومن المدهش أنْ يُوردُ** المؤرخ عماد الدين إسماعيل خبر خراب الرستن، الدي نَقَلَهُ عن إبن جبير على ما يبدو والذي مر بالرستن عام /٥٨١ هـ/، كما ذكرنا سابقاً في سياق البحث.. بدون أن يُعَلِل السبب، أما في عهده /٧١٠ هـ/ فغير مستغرب خراب البلدة المذكورة، نظراً لسطوة البدو في عهد المماليك الذين كانوا يؤلفون قوة حربية، تجعل حكام البلاد الشامية يحسبون لها ألف حساب مثل آل ريشة.

وإذا أدركنَا أنَّ الرستن تمتعت في العهد الروماني خاصة، بازدهار إقتصادي زراعي، وأصبحت مركز اسقفية كما سيأتي بيانه فيما بعد، فمن المحتمل أنَّ البلدة بعد رحيل الروم عنها.. بقيت قليلة السكان. ولم يكن للعرب المسلمين الفاتحين دراية بفن الزراعة، أو طرق هندسة الري لإسالة المياه، التي نَظَّمَها الآراميون ثم اليونان ثم الرومان في البلدة وسهولها الغناء، لأنَّ العرب المسلمين في القرن الأول والثاني تقريباً

٢١ـــ تاريخ حمص القديم / نقلاً عن تقويم البلدان ص٢٤٧/.

انصرفوا إلى الفتح والإدارة والسياسة، وتركوا معظم الأراضي بأيـدي أصحابها، مقابل ضريبة الخراج.

هذا ولا تزال أقنية المياه للري ومراكز توزيعها على الأراضي ظاهرة للعيان... وقد بنى قادة الرومان قصورهم خارج البلدة، وزَيَّنوا أرضية تلك القصور وحماماتها بتلك الفسيفساء ذات المناظر المدهشة التي تأخذ بمجامع القلوب، وهيئوا لمثواهم تلك التوابيت الأخّاذَةَ والتي أصبحت بعد اكتشافها مؤخراً حديثاً على كل شفةٍ ولسان، حيث أبدع الفنانون مناظرها المستوحاة من الملاحم اليونانية القديمة، والتي تَنِمُّ عن ترفٍ حضاري وسوف نتناول بعضها بالدراسة فيما بعد.

هذا وقد ترددتُ كثيراً قبل أنَّ أضم ما ورد في دائرة معارف البستاني عن الرستن، إلى البحث. ولكن حتى يأخذ البحث صفة الشمول، أدْخلْتُ مَاوَرَدَ فِي الموضوع.

«أريتوزا مدينة هرب إليها بحراً تريغون، عندما حاصره أنطونيوس في دورا /١ ملك ١٥ ــ ٢٧/ قال بَلّيي إنَّ موقع أريتوزا إلى شمال طرابلس وجنوبي نهر الوثيروس الذي كانت مبنية بالقرب منه. وكانت

تخم فنيقيا الشمالي على مسافة /١٣٠/ استادة، من نهر الأورنط، وذهب بعضهم إلى أنَّ نهر الوثيروس نفس النهر المسمى حديثاً بالبارد، الذي توجد على ضفته اليسرى آثار مدينة عظيمة وذكر / موتنجر / أنَّ أريتوزا على مسافة / ٣٠ ميلاً/ عن طرابلس الشام إلى الشمال. ويستدل أيضاً على موقعها من صكوك / لأنطيونوس بيوس / ضُرِبَ في أريتوزا وقد نُقِشَ على قفاه صورة المعبودة عشتروت دائسة على حانب النهر، فإنَّ تلك المدينة كانت على أرض مرتفعة، عند الضفة اليسرى من النهر على مسافة قليلة.

ولا بد أنَّ أريتوزا كانت من أهم المدن، الواقعة على الطريق بين فنيقيا وسواحل سورية، ثم إنَّ السيد / بورتر / الذي ذهب إلى أنَّ نهر الوثيروس هو نفس النهر المسمى حديثاً بالنهر الكبير، ذكر أنَّ آثار أريتوزا هي على الضفة الجنوبية من نهر البارد، وهو يتفق في ذلك مع بطليموس وبليني.. ولكن إذا كانت الآثار الواقعة على الضفة الجنوبية من النهر البارد، وهي آثار أريتوزا لا يصح القول بأنَّ الوثيروس هو نفس النهر الكبير، فإنَّ استرابون يجعل تارة أريتوزا تخم فنيقيا الشمالي، وتارة نهر الوثيروس المجاور لها... ولو كان نهر الوثيروس على مسافة /٤/ ساعات إلَّا ربع الساعة أو تقريباً اثني عشر ميلاً عن أريتوزا لما صح ذلك كما لا يخفى.. وقد ذكر / يوسيفوس / أنَّ تريفون هَرَبَ إلى آفاميا

مع أَنَّهُ قيل على ما ذكرهُ /غُرَّمُ/ أنه التجأ إلى / بتولمايس / وقد صَرَّحَ . ذلك /غرم/ بقوله أنَّ تريغون ، ربما كان قد هرب إلى أريتوزا ، ثم إلى / بتولمايس / وأخيراً إلى آفاميا حيث قُتِلَ ... وهكذا يكون إتفاق في تقرير المؤرخين »[٢٢]

ولو أخضعنا هذا النص للنقد التاريخي لظهرت لدينا الحقائق التالية :

١ ــ إنَّ طبعة دائرة المعارف هذه أصبحت قديمة وقراءتها أيضاً سقيمة ... وتعود طباعتها لعام /١٨٨٢ م/ ولا يخفى أن الفسحة الزمنية التي تفصل دراستنا عنها استَجَّدَ فيها كثيرٌ من الحقائق العلمية والتاريخية .

٢ ــ اعتمد المؤلف البستاني في بسط مشكلة الملك السلوقي / تريغون / الآفامي على التوراة بشكل رئيسي ، حيث عَزَّتْ عليه المصادر آنذاك . أما الآن وبعد التقدم المدهش في علوم الآثار وقراءة الخطوط القديمة كالمسمارية والهيروغليفية ، اتضح لدى علماء الآثار ، أنَّ التوراة نفسها أخذت كثيراً من آداب الأمم القديمة وشرائعها وادعَّاها كتبة التوراة لهم . فمثلاً : ملاحم رأس شمرا التي قرأها وفسرها العالم

٢٢ ــ دائرة معارف البستاني / ح ٢ ص ٧٩٦/ .

/ فيرولو /[٢٣] ، ونشيد الأناشيد للنبي سليمان ، ظهر أنهما نقلا حرفياً تقريباً إلى صلْبِ التوراة إلى غير ذلك كما نوهنا آنفاً[٢٤] .

وقد قامت الباحثة العربية / بديعة أمين / بدراسة هامة حول إقتباس كتبة التوراة لنشيد الأناشيد[٢٥] . فقد لاحظ العلماء أنَّ وضع هذا النشيد ذي الحب الشهواني خلال كتاب ديني أمرٌ مستغربٌ . وهكذا مضت القرون إلى أنْ جاء تفسير الكتابة المسمارية وحل رموزها ، وانهمرت على العلماء تلك الآداب العربية القديمة التي استطاعت أنْ تميط اللثام عن أكبر إقتباس أدبي في التاريخ قام بها الربانيون اليهود . هذا ويلاحظ حيرة المؤلف حول تعيين موقع الرستن في زمنه واعتماده على المصادر اليونانية والرومانية في تحديد موقعها ، بالإضافة إلى عدم اعتماده ولو على دراسة علمية عن الرستن .

وقد وقع في الخطأ نفسه أيضاً الأب لويس المعلوف في منجده .. رَغْمَ أنَّ عصره قريب من عهدنا ، فقد حَدَّدَ موقعها : جنوب مدينة حمص !!

٢٣ ــ من الساميين إلى العرب / الشيخ نسيب وهيب الخازن / ص ٤٤ / .
٢٤ ــ طقوس الجنس المقدس عند السومريين / صموئيل نوح كريمر / ص ١٢٥ / الطبعة العربية / .
٢٥ ــ مجلة آفاق عربية / عدد ٥ / سنة ١٩٧٩ / ص ٦٤ / .

٣ ــ ودائرة معارف البستاني ورد في نصها عن الرستن: أنَّ /أنطيونوس بيوس/ الذي قتل تريغون الآفامي، قام بسك عُملة عليها صورته، وعلى قفا العملة صورة عشتروت، إلهة الخصب والحب والتي انتشرت عبادتها، خاصة عند الفنيقيين، انتشاراً هائلاً، وانتقلت عبادتها إلى بلاد الرافدين وعرفت هناك باسم /عشتار/ ومعنى هذا أنَّ الرستن كانت في العهد السلوقي وطوال فترة حكم الملك السلوقي المذكور /٢٨١ ــ ٢٦١ ق. م/، مركز ضرب العملة للدولة السلوقية (يراجع المنجد ــ قسم التراجم ص ٤٢ العمود الأيمن ــ بخصوص النقد) ويفهم من دائرة المعارف المذكورة أنَّ الرستن كانت تقع على حدود فنيقيا من الشمال. وفي دائرة معارف البستاني ورد اسم المؤرخ اليهودي /يوسيغوس/ الذي عاش بين /٣٧ ــ ١٠٣ م/ والذي اعتمد عليه البستاني حول ثورة القائد تريغون الآفامي. أقول أنَّ هذا المؤرخ أول شوفيني في التاريخ القديم.... وهو شهادة حية، قائمة بذاتها، في عنصريته وحبه لانغلاق الذات اليهودية، وعدم إندماج اليهودي مع الآخرين...

وقد قامت مساجلات بينه وبين مؤرخي الإغريق الذين اتهموا اليهود بأنهم ليس لهم تاريخ ولا حضارة. (كتاب الفكر التاريخي عند الإغريق) للمؤرخ الإنكليزي أرنولد توينبي...

وهكذا ظهر لنا من دراسات النصوص التي سقناها على صفات مشتركة بين هذه المصادر على عظمة هذة البلدة ذات الماضي العريق ، ولكن أيّاً من هذه الينابيع التي ارتشفنا منها ، لم يأت على ذكر العنصر العربي السكاني الذي أقام في الرستن في مختلف العهود بعد التأسيس . وقد كفانا العلّامة المرحوم جواد علي في كتابه القيم (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) ، وسيكون عمدتنا عن هذه النقطة الحيوية من هذا البحث ، فلنترك جواد علي يضيء أمامنا المسرح التاريخي لأريتوزا القديمة ، لنرى الأحداث التي دارت فوق أرض بلاد الشام ومنها أريتوزا الحاضرة القادمة من أعماق التاريخ البعيد .

هذا ومن المعروف أنَّ مدن سورية الداخلية كانت معبراً للتجارة الدولية بين الشرق والغرب ، والذي يتحكم في هذا الشريان الحيوي يحصل على مكاسب مادية ، ويفرض نفوذه على القوى المتنافسة آنذاك .. إنْ كانت الدولة الرومانية أو منافستها الفارسية ، هذا وقد اسْتَغَّلَ الأعراب أهمية البوادي ، فتحكموا في مسالكها ، واستغلوا أهمية الماء بالنسبة للقوافل والجيوش .

« فلم يكن في وسع جيش قطع البادية من غير ماء ، وأخذوا يعاملون المعسكرين المذكورين آنفاً وفقاً لحاجتهم إلى هذه الطرق والماء . ويفرضون على المعسكرين شروطاً تتناسب مع مواقفهما العسكرية ، ومع

الأحوال السائدة بالنسبة لتلك الأيام، وصاروا يجبرون كل معسكرٍ من المعسكرين على تقديم أحسن الترضيات لهم، والإنضمام إليه ضد المعسكر الشحيح البخيل»[٢٦].

وقد استندت سياسة الرومان، ثم سياسة الروم البيزنطيين من بعدهم، إلى قاعدة الإستفادة من العرب في حماية المواضع التي يصعب على الرومان أو الروم ــ بعد انفصال الكنيسة الشرقية عن أختها الغربية ــ حمايتها والدفاع عنها .. وذلك مثل تخوم الصحارى، وفي صد هجمات الأعراب المعادين أو الذين يدينون بالولاء للفرس. وفي مهاجمتهم أيضاً ومهاجمة حلفاء أولئك الأعراب، المعادين لهم وهم الفرس. وفي أيام القائد بومبي Pompeius /١٠٧ ــ ٤٨ ق. م/ كان أحد سادات القبائل العربية متحكماً في البادية المتاخمة لبلاد الشام، وقد ذكر استرابون /٦٠ ق. م ــ ١٥ م/ أنَّ اسمه الخَديموس Alchaidemos وجعله ملكاً على قبيلة دعاها باسم رحبة Rahbaet وقد كان من حلفاء الرومان، ثم انتقض عليهم وعَبَرَ الفرات إلى العراق، وذلك لإهانة لحقته من الحاكم الروماني، أو من بعض القواد الرومان. ويظهر أنَّهُ اجتاز العراق إلى البارتيين وقد ذكر بعضُ المؤرخين أنَّهُ كان في سنة /٥٣ ق. م/ فيما بين النهرين، وأنَّهُ كان يقوم بغاراتٍ على بلاد

---

٢٦ ــ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام /الدكتور جواد علي/ ج٣ ص ٦٠٥/.

الشام ، ويظهر أنه ترك البارتيين بعد ذلك وعاد إلى حلفائه الرومان ، وقد نَعَتَهُ ديوكاسيوس Diocassius بالتذبذب والإنتهازية وقال : إنَّه كان يَتَنَقَّل إلى جانب القوى.

« وكان /الخديموس/ قد استولى على مدينة أريتوزا وهي مدينة الرستن وجعلها مقراً لحكمه ، وتقع على نهر العاصي ويسمى بـ Orantus عند الكتبة اليونان والرومان ، ولا ندري اليوم متى دخلت في حكمه ، ويظهر أنَّ حكمه دام طويلاً » .

وذكر أنَّه كان لهذا الملك ولد اسمه /أيا مبلخوس/ وكان عاملاً على شعب Emesner وقصد استرابو بشعب /إيمنير/ الناس الساكن في أطراف المدينة Emesa وهي حمص ، وقد ساعد أيا مبلخوس المتوفي سنة /٣١ ق . م/ حكام روما ضد البارتيين ، فقدم لهم مساعداتٍ مهمةٍ ، ولا سيما إلى /اكتافيوس/ ... وقد ساعد الملك أكبر Acborus الذي حكم حمص بعد هذا الملك أيضاً الرومان في كفاحهم للبارتيين وذلك سنة /٤٩ م/. ولم يكن لهؤلاء الملوك من خيار سوى الانحياز إلى الرومان ، لأنهم كانوا أقوياء ، وقد هيمنوا على بلاد الشام . ويواصل الدكتور جواد علي رواياته المنتقاة من المصادر الكلاسيكية :

« ولا نعرف في الوقت الحاضر شيئاً عن الملك /الخديموس/ ولا عن قبيلته ، أما عن اسم الملك فيظهر أنَّهُ محرف عن أصلٍ عربي هو

/ الخدم / أو / خديمة / أو / الخصم / وهي من الأسماء العربية المعروفة التي ترد في كتب الأخبار » .

« ويظهر أنَّ قبيلته كانت من جملة القبائل العربية ، التي كانت قد زحفت إلى بلاد الشام واستوطنت أطراف حمص وتقدمت بعضُها ، فنزلت في أماكن أبعد من هذا المكان إلى الشمال ، حيث المرعى والكلأ والماء ، وكانت كلما وَجَدَتْ ضعفاً في الحكومات الحاكمة لبلاد الشام ، إنتهزت الفرصة فتقدمت إلى مواضعٍ أخرى في الشمال ، حيث يكون الخصب والماء »[٢٧] .

ويُنهي المرحوم الدكتور جواد علي بحثهُ القيم عن عاهل أريتوزا / الخديموس / وخلفائه بما يلي :

« وفي أيام بومبي كانت أريتوزا المجاورة لحمص وهي الرستن مقر أسرة عربية حاكمة ، وفيها ولد القيصر هليوجابال ، **Elagabale** الذي امتد حكمه /٢١٨ ـــ ٢٢٢ م/ وبلغت الرستن أوج إزدهارها في أيام سبتيموس سيفيروس /١٤٦ ـــ ٢١١ م/ وفي أيام اسكندر سيفيروس . وكانت أسقفية في عهد البيزنطيين »[٢٨] .

هذا ومن الثابت تاريخياً أنَّ شبه الجزيرة العربية هي الموطن

---

٢٧ ـــ المفصل / ج ٢ ص ٦٠٥ / .

٢٨ ـــ المفصل / ج ٢ ص ٦٠٥ /

الأصلي للموجات العربية التي انتشرت في أرجاء الوطن العربي، وكان آخرها هجرة عشائر شمر «إنَّ هجرة عشائر شمر من أوطانها في نجد إلى ديار العراق والشام كانت متقطعة ومتتالية، كهجرة عشائر عنزة، جاء السابقون منهم في الهجرة الأولى على ما يظن في أوائل القرن الحادي عشر، في عهد ولاة العراق المماليك، وذلك بسبب المحل وضنك العيش في جبل شمر المذكور. أي لأسباب اقتصادية»[٢٩].

ويكاد يكون هناك اجماعٌ بين المؤرخين حول انسياب الأقوام العربية القديمة من موطنهم الأم إلى بلاد الشام وغيرها حسب المخطط الزماني التالي:

١ ــ هجرة الأكاديين إلى العراق. حيث استقروا شمال سهل شنعار السومري، واتخذوا عاصمة لهم مدينة أكّاد التي لم يحدد العلماء مكانها بالضبط. وهجرتهم كانت في حدود /٣٥٠٠ ق.م/.

٢ ــ العموريون وقد هاجروا من شبه الجزيرة وأقاموا مملكتين عامرتين:

الأولى في بابل بالعراق وهي الدولة البابلية الأولى وأعظم ملوكها حمورابي المشرع المشهور[٣٠].

٢٩ ــ من أحاديث العشيات /الدكتور عبد السلام العجيلي/ص ٣٥/.

٣٠ ــ تاريخ شيزر /الدكتور عزيز نايف رزوق/ص ٢٢/.

والمملكة الثانية في عطفة نهر الفرات غرب البوكال وهي دولة ماري الشهيرة، وأعظم ملوكها: / زمري ليم / وقد بَسَط ملوك ماري مثل: / نابلا نوم / / وإيشبي عير / نفوذهم وسيادة ماري على عدة دول مدنٍ سومرية في العراق، وبذلك سيطروا على الطريق التجاري الحيوي المحاذي لشاطئ نهر الفرات، وقد لاقت ماري مصيرها المحزن على يد حمورابي في العام الثاني والثلاثون من حكمه /١٧٢٨ ـــ ١٧٨٦ ق. م/ وأصبحت ركام قرية اسمها تل الحريري[٣١]. وقد حدثت هجرة هذه الموجة في حدود / ٢٥٠٠ ق. م/.

٣ ـــ وبنفس هذه الحقبة الزمنية هاجرت أيضاً من شبه الجزيرة موجةُ العرب الكنعانيين وتوزعوا إلى شعبتين:

الأولى استوطنت فلسطين العربية وأسست عدة مدنٍ أهمها يبوس / القدس / ثم بيسان وغيرها...

والفرع الثاني استوطن على طول الساحل السوري وأقام على شاطئ البحر المتوسط: دول مدنٍ عديدة أهمها: أوغاريت، أرواد، وجبيل، وصور، وصيدا،.. وهَاجَرَ فريقٌ من أهالي صيدا بزعامة / ديدون / إلى شمال إفريقيا، حيث أنشأوا أعظم إمبراطورية تجارية فيما

٣١ ـــ تاريخ الشرق القديم / عبد العزيز عثمان / ص ٤٠١/.

وراء البحار، وكان مصير هذه الإمبراطورية المحزن على يد الرومان بعد حروب بونيقية طاحنة بين الدولتين للسيطرة والسيادة على مياه البحر الأبيض المتوسط، وقد برز في هذه الحروب القائد الفذ هانبال بن هاملقار، كأعظم قائد أنجبته العصور القديمة، وقد دُمرت قرطاجة في نهاية المطاف عام /١٤٦ ق . م/ وحرثت أرضها ورشت بالملح، حتى لا تعود إليها الحياة مرة أخرى.

٤ ـــ والموجة الرابعة التي استوطنت بلاد الشام وكان لها تأثير كبير من الناحية اللغوية هي موجة العرب الآراميين /١٥٠٠ ق . م/ الذين أشادوا دول مدنٍ هامة وتكلم بلغتهم السيد المسيح عليه السلام، وأصبحت لغتهم اللغة الرسمية في المراسلات الدبلوماسية وأعظم ممالكهم: دمشق التي وقفت سداً منيعاً مع الممالك الآرامية الأخرى في صد الآشوريين عن بلاد الشام. وقد سقطت هذه الممالك أمام الضربات الآشورية وكان آخرها دمشق عام /٧٣٢ ق . م/.

٥ ـــ والموجة العربية التي تسربت إلى بلاد الشام، هي هجرة الأنباط عام /٥٠٠ ق . م/ واتخذت موطئ قدم لها في وادي عربة / في شرق الأردن/ واتخذت عاصمة لها مدينة /البتراء/ التي نُحتت في الصخر ذي الألوان الوردية.

٦ ـــ والموجة العربية هذه تركت موطنها في اليمن بعد خراب سد

مأرب ، فالمناذرة استقروا في جنوب بلاد الرافدين والغساسنة سكنوا في جنوب دمشق عام /١٥٠ م/ واتخذوا عاصمة لهم مدينـة /بُصْرَى الشام/ وكانوا في عداء دائم مع إخوانهم المناذرة في العراق بسبب النزاع على المراعي الواقعة على حدود الدولتين والمعروفة باسم /استراتا/ . ولما حاول أحد ملوك الغساسنة أنْ يضع حداً للحرب مع المناذرة ، لم يمهله البيزنطيون ليتم مشروعه ، فنفوه إلى جزيرة صقيلية .

٧ــ وآخر موجة عربية وأعظمها : العـرب المسلمـون عام /٦٣٥/ ، حيث اكتسح الفاتحون أعظم إمبراطوريتين في تلك الأيام وانساحوا من المحيط إلى الخليج وذابت الأقليات في كيان الوطـن العربي .. ورَحَّبَ السكان بإخوانهم الجُدُدْ ، حتى إن المسيحيين في القدس طلبوا من الخليفة عمر بن الخطاب لما استلم مفاتيح القدس من يد البطريرك /صفرونيوس/ وكتب لهم العهدة العمريـة ، طلبـوا أن لا يساكنهم اليهود .

ومن خلال هذه اللوحة التي رسمناها لعناصر السكان في بلاد الشام ، نرى أنَّ الأقوام التي غزت الوطن العربي على مر العصور ، كالحوريين والميتانيين والحثيين والفرس واليونان والرومان ، قديماً والفرنسيين والإنكليز والطليان والبرتغاليين حديثاً ، قد لفظتهم الأرض العربية خارج

حدودها .. كما ستلفظ في المستقبل المستعمر الصهيوني مَشْياً على سنن التاريخ العادلة الخاصة به . وبقيت آثارهم شاخصة لأعين السُوّاح .

وحتى إنَّ هذه الأقوام الغازية لم تترك بصمات واضحة في صوغ الحضارة العربية بخلاف سكان أوغاريت ، الذين أنعموا على العالم بالأحرف الأبجدية ، وسكان مدينة جبيل بورق البردى المستورد من مصر وتصديره إلى العالم الخارجي يومذاك وقدم سكان الرافدين : علم الفلك ، والسحر ، والتنجيم والرياضيات وقوانين حمورابي ، ومصر بالطب والهندسة والأهرامات التي قاومت عوامل الفناء ولا تزال حتى كتابة هذه السطور تهزأ بالزمان .

وهكذا كانت الجزيرة تغذي الأرض العربية في آسيا وإفريقيا بموجةٍ بشرية إثر موجة .

وأصبحت منطقة الرستن قاعدة أمراء العرب في القرن الأول الميلادي ، ويتحدث أحد المصادر :

كانت أريتوزا أيام استرابون قاعدة إمارة عربية ، دخلت تحت حماية الدولة الرومانية في أيام أغسطس ، وتيباريوس وذكرها زوسموس المؤرخ اليوناني ، إبّان بسطه حروب زنوبيا وأورليان ، إذ شرح تعقب القيصر لزنيب حينما عادت إلى حمص تستنجد فرسان العرب فيها .

وفتح في طريقه آفاميا ولاريسا / شيزر / وأريتوزا حتى بلغ ضاحية حمص ، حيث نشبت المعركة العظيمة في السهل الرحب الكائن بين حمص وأريتوزا[٣٢] .

ومن الهام في هذا البحث أنَّ أريتوزا كانت للملك العربي شمشيغرام ، والمعروف أنَّهْ كان في أول أمره ، رئيساً لأحبار هيكل الشمس في حمص ، وقد جمع في شخصه الولاية على الشؤون الدينية والمدنية معاً . هذا وقد وَجَدَ البحاثة الأثري ودنفتون اسمه في أثر مكتوب باليونانية في حمص .

وذكر استرابون الجغرافي اسم شمشيغرام عند كلامه على حصار آفاميا وخلاصة ما قاله : أنَّ القائد الروماني استنجد عن اضطرار بالملوك المجاورين ، كليرياس وشمشيغرام وإبنه يمبليك اللذين كانا مخيمين في الرستن ، وذكر الأب هنري لامنس اليسوعي في رحلته إلى حمص أنَّ شمشيغرام أمير عرب حمص ، وملك قلعة أريتوزا تدخل في مشاغبات الشعب الأنطاكي في زمن أنطيونوس الآسيوي الذي استعان بشمشيغرام عندما استولى بومبي على سورية وقد لَقَّبَهُ أَهْلُ روما آنئذٍ شمشيغرام الروماني[٣٣] .

٣٢ـ تاريخ حمص القديم /ص٢٤٧/ .
٣٣ـ تاريخ حمص القديم /ص٢٧٦/ .

هذا وذكر الأستاذ بشير زهدي في ندوة حمص الأثرية الأولى لعام /١٩٨٤/ «أنَّ قدماء العرب في منطقة حمص كانوا قد اتخذوا موقع /الرستن/ كحصنٍ منيعٍ لهم. وكانَ عَدَدُ العرب في المنطقة وتزايد قوتهم وتزايد نفوذهم وفَعَّالياتهم ونشاطهم، مما جعلهم ذوي السلطة الحقيقية فيها، حتى إنَّ الملوك السلوقيين في العصر الهلنستي كانوا يستعينون بهم، ويعتمدون عليهم في تحقيق إنتصاراتهم على خصومهم»[٣٤].

ويضيف الباحث أنَّ الرومان بعد قضائهم على الحكم السلوقي في سورية، عام /٦٤ ق.م/ أدركوا أهمية قوة العرب الحقيقية في المنطقة، وإمكانات شمشيغرام وحاجاتهم إلى الهدوء في هذه المنطقة.

كل ذلك جَعَلَهُمْ يتقربون من هذا الأمير العربي، ويعترفون بسيادته على هذه المنطقة العربية الواسعة وبَلَغَ الأمر بسكان /روما/ درجة جعلتهم يلقبون هذا الشيخ العربي الشجاع بلقب صديق (الرومان)[٣٥]

وهكذا عاصرت أسرة شمشيغرام العربية [كلمة شمشيغرام

٣٤ ـ ندوة حمص الأثرية الأولى /ص٥٦/.
٣٥ ـ نفس المرجع /ص٥٩/.

سرياني : شمستي معناه الشمس وغرام معناه الحاكم ومعنى اللفظين معاً : الحاكم باسم الإله شمس (يراجع تاريخ حمص القديم ص ٢٨١)]، الأحداث الجسام التي عاشتها الإمبراطورية الرومانية، حتى مجيء الإمبراطور دوميشيان عام /٥١ــ ٥٩م/ وقضائه نهائياً على هذه السلالة العربية في نهاية القرن الأول الميلادي، بعد أنْ رفضت ضم منطقتها إلى جسم الدولة الرومانية.

وهكذا ساد النفوذ الروماني على الأرض العربية في القارتين: الآسيوية والإفريقية وتقاطرت القبائل العربية من جوف الجزيرة العربية إلى بلاد الشام، حتى إنَّ العَرَبَ المسلمين عندما خرجوا من الجزيرة لنشر العروبة والإسلام، لم يحتج القادة للأدلاء أو التراجمة للتفاهم مع السكان، لأنْ هؤلاء القادة، كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأبا عبيدة بن الجراح، كانوا يتحركون على أرضٍ ينطق سكانها باللغة العربية تقريباً، وما قيام الغساسنة والمناذرة ومملكة الحَضَرْ، وتدمر إلَّا دليلاً أكيداً على عروبة هذه الأصقاع منذ القدم... ونعم الرومان في هذا الشرق الخالد بالحياة الناعمة وكانوا الطبقة الغنية التي رَفَلَتْ في مطارف العز، حيث بلغ عدد سكان الرومان حوالي / ٥ر٦ / مليون نسمة على / ١٢٠ / مائة وعشرون مليون من السكان أهل الأرض في قارات العالم

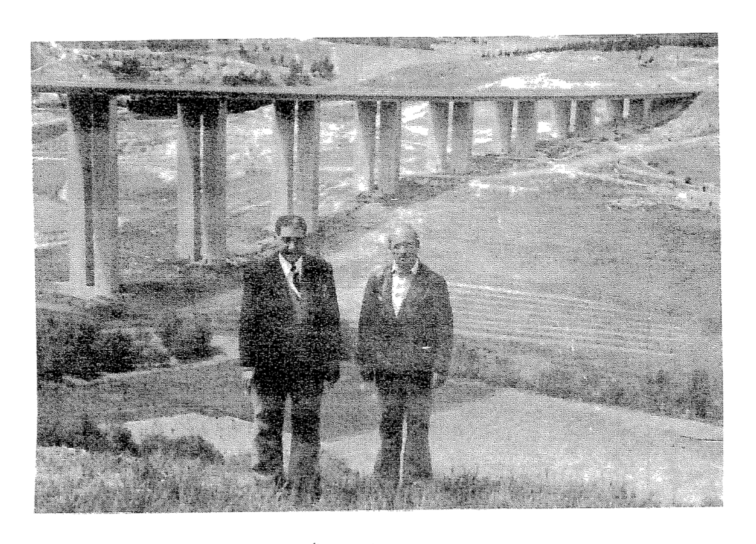
القديم . وآثارهم الباقية من الطرق والحمامات . أو تلك التي طواها التاريخ تشهد على ازدهار البلاد في كافة مناحي الحياة(٣٦) .

وكانت أريتوزا التي تتمتع بموقع استراتيجي كما بينا سابقاً ، والتي أصبحت الآنَ تنعمُ بالسلام الروماني والذي دام على ما يقال /٥٠٠/ خمسمائة سنة ، أضْحَت في أوائل القرون الأربعة الأولى لانتشار المسيحية ، من المراكز الهامة ، حيث أحيطت بالأسوار الدفاعية المنيعة وجلبت لها المياه من بحيرة قطينة على الأرجح .. وقد شُقَّتْ حولها الأنفاق السرية ، لا يزال أحَدُها قابعاً تحت الأرض وذلك إلى الشرق من الطريق الدولي الحديث وجنوب الجسر الذي يربط بين ضفتي نهر العاصي .

ناهيك عن القصور التي بناها القواد والأمراء الرومان ، والتي زُخْرِفَتْ بنماذجٍ من السُجَّاد الفسيفسائي الرائع ، والذي اتخذ أشكالاً متنوعة ، أهمها قلعة الرستن وعاصيها وحوريات العاصي ، إضافة إلى أنهم هيأوا لمثواهم تلك التوابيت النادرة والتي جُلبَت رخامها من الأراضي التركية(٣٧) ويقال أنَّ جسر الرستن ، بني قبل الميلاد وهناك نص تاريخي يفهم

٣٦ــ اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها /إدوارد جيبون/ الترجمة العربية ، /ج ١ ص ١٠٤/ .

٣٧ــ ربوع محافظة حمص /ص١١٨/ .



الجسر الدولي شرق الرستن

من سياقه أنَّ معركة قامت بين المطالبين بالعرش السلوقي، ونصر والي دمشق أحدهما على الآخر، حيث إجتاز مع جيشه تحت جنح الظلام نهر العاصي على جسر الرستن، وعرف بفرارهم / الحزب المعارض / فلما تعقبهم، لم يستطع اللحاق بهم.. لإجتيازهم مسافة بعيدة، فارتد إلى قبيلة كانت مخيمة هناك، فضربها وسلب مواشيها، لممالأتها الأعداء، ثم أتى دمشق[٣٨]. وإبَّان الإحتلال الروماني بلغ من التسهيلات وإنتشار الأمن، أنَّهُ كان باستطاعة الإنسان أنْ يسافر من إنكلترا إلى ضفاف نهر الفرات في أي وقتٍ شاء، وأن شعوره بالأمن، وتوسع شبكة الطُرق وظهور التجارة العالمية عمل على تشجيع الإنتاج الاقتصادي إلى حدٍ لم يعرف قبلاً، فازداد عدد سكان سورية ونما الإنتاج وتحسنت الزراعة بسبب تطور الإختراعات التي شَمَلتْ المحراث المتطور وطاحونة المياه، كما طرأ تحَسن أيضاً على النواعير، ومنها نواعير حماة وشيزر والعشارنة، وكانت النواعير تستخدم للري بنقل مياه العاصي إلى السهول المجاورة[٣٩].

وأثناء إتخاذ أسرة شمشيغرام مقراً لسكنها في الرستن / أريتوزا / وأضحى حكمها خطراً على الإمبراطورية الرومانية بسبب تدخل أفراد

٣٨ــ تاريخ حمص القديم / ص ٢٤٢/.
٣٩ــ شيزر / ص ١٠٧/.

تلك الأسرة في النزاعات الداخلية للرومان وَتَحزَّبوا لأنطونيوس على اكتافيوس في عهد الأسرة المذكورة، نَمتْ الزراعة في أريتوزا واستثمرت المناطق المجاورة لنهر العاصي وقسمت إلى بساتين وفق النموذج الكلاسيكي لتقسيم الأراضي في العصر الروماني والمماثل لتقسيمات الأراضي في إيطاليا وتونس وهو النموذج المعروف باسم **Limitus** حيث تقسم الأراضي إلى حصص متساوية تبلغ مساحة كل منها /١٠٠/ هيريديا أي /٥٠/ هكتار وكل هيريدي يساوي /٥٠/ آر. أي المقاسم المئوية (٤٠).

وشقت الطرق لنقل البريد والتجارة ومسير الجيوش، ولربط الولايات مع بعضها، ولا تزال آثارها في معظم أنحاء بلاد الشام.. وأقيمت الجسور فوق الأنهار....

---

٤٠ ــ موجز تاريخ حمص / ماجد موصلي / ص ١٩/ نقلاً عن الحوليات الأثرية.

دراسة بعض اللقى الأثرية

وأهم ما عثر في البلدة من الآثار التي ترجع إلى العصر الروماني، هو تابوت رخامي، زنته خمسة أطنان، يزخر بمشاهد لحرب طروادة الشهيرة، بالإضافة إلى تابوت رخامي آخر زنته /٥ر٤/ أربعة ونصف طن عليه مشاهد لأسطورة ملياغر الشهيرة. ونقوم بالتعريف على كل منهما:

في الشهر الرابع من عام /١٩٧٧/ اهتزت أسلاك الهاتف لتنقل إلى العالم خبر إكتشاف أعظم وأثمن تابوت رخامي عثر عليه بالقطر العربي السوري، وذلك عندما أزاحت مديرية الآثار بإشراف الأستاذ كامل شحادة، وزميله السيد رياض البدري التراب عن اللقية المدهشة التي أحدثت دوياً هائلاً في دنيا الإكتشاف الأثرية في سورية.

وموقع التابوت المكتشف وجدَ إلى جنوب سور الرستن بمسافة قدرها /١٩٠/ متراً وغرب خزان توزيع المياه لأريتوزا، بمسافة /٣٠/ متراً. وذلك جنوب البلدة ضمن مقابر المدينة القديمة على الأرجح وفي أرض تعود ملكيتها للسيد /محمد أحمد زهر حمدان/. في الحي الجديد جنوب البلدة، وخلال ثلاثة أيامٍ من العمل المضني، تمّ الكشف عن التابوت وسط الرياح وزحمة الجماهير التي أقبلت لرؤية ذلك الأثر الذي يأخذ بمجامع القلوب. ثم نقل التابوت واستقر في المتحف الوطني بدمشق داخل إحدى القاعات.

أمّا أوصافه الإجمالية التي نشرتها مديرية الآثار فهي كالتالي:

«فطوله /٢٢٠/ سم وارتفاعه /١٤٠/سم وعرضه /١٠٠/سم فهو قطعتان ضخمتان مِنْ رخام أبيض. ذي حبيباتٍ شفافة متبلورة تؤلف الغطاء والصندوق.

نحت الغطاء بشكل رجلٍ وامرأة، يعطف عليها بيمناه، وهما يتكئان على شماليهما مستندين على وسادتين مطرزتين، وباعتداء قديم فقد رأس تمثال الأميرة ويمتدان بجسميهما على فراش وثيرٍ، غني بالزخارف والأشكال الهندسية بعرض /٢٥ سم/. وهو يحتوي بواجهته الأمامية على أسطورة إغريقية، أربعة مشاهدٍ منها في الغطاء، والتابوت

بشكلٍ مستطيلٍ، بارتفاع وعرض متر تقريباً، قبل الرأس و/٩٠ سم/ من الجانب الآخر. ذو فراغ داخلي /١٨٧×٥٥ سم/. وسمك جوانبه /١٧ سم/، ينخفضُ منها بعرض /٣٫٥ سم/ على المحيط لإنزال بروز الغطاء فيه وطوله في واجهته الأمامية /٢٢٨ سم/ بينما في الخلف نحو /٢٢٠ سم/ وهو لا يستوي بزواياه. تمثل جوانب التابوت الثلاثة معركة بحرية ــ برية مستمدة من الميثولوجية الإغريقية، تحيط بها الأطر والأفاريز الغنية جداً بزخارفها، وواجهته الخلفية ذات مشهد مائدة جنائزية، مرفوعة على قاعدة تغلبُ فيها أنواع الفاكهة ويحرسها من جانبيها أسَدَانِ برأسي نسرين مجنحين، إلى جانبيهما تنتصبُ شجرتان كبيرتان»(٤١)

أين كان يرقد التابوت؟ اتضح لدى البعثة الأثرية التي شكلتها المديرية العامة للآثار والمتاحف بكتابها رقم /١٧٣٩/ص/٣/ وتاريخ ١٩٧٧/٥/١٣ وحيث باشرت العمل بالتنقيب بتاريخ ١٩٧٧/٦/٤ أنَّ التابوت كان يَرْقُدُ ضمن بناءٍ قوي بني من حجارةٍ ضخمةٍ كلسية، متداخلة مع بعضها لتعطي البناء القوة والمنعة، وأنَّ البناء أُتُخِذَ قبراً منفرداً كان التابوت يرقد فوق مصطبةٍ بُنيت خصيصاً له، وفي القرن السادس الميلادي على الأرجح طُرِحَ التابوت المُصوَّر

---

٤١ ــ مجلة الحوليات الأثرية السورية. /كامل شحادة/ص٦٣/.

خارج البناء المعد له والذي كانت أبعاده /٢٥ر١١×٢٥ر٨م/.
وجُدْرَانهُ الشمالي والشرقي والجنوبي متساوية بالعرض وهو حوالي المترين تقريباً، أما الجدار الغربي فهو بعرض /٧٥ر٤م/ تقريباً، ثم أتخذ كمدفنٍ لتابوتٍ من الحجر البازلتي أطواله: /١٨٩ سم/ وارتفاع /١١٠ سم/ وعرض /٨٠ سم/ والفراغ /١٧٠×٤١ سم/ وذلك بوسط الفناء المركزي من الشمال إلى الجنوب يتقدم المصطبة الصدرية نحو /١٦٥ سم/ وينخفض عن سوية سطح الأرض نحو /١١٠ سم/، ورغم فقر التابوت البازلتي بالمودوعات الجنائزية، فقد اتخذ واضعوه إحتياطات مشددة خشية سطوة لصوص الآثار عليه.

وقد شارك هذا التابوت ثلاثة مدافنٍ في الجدار الشمالي والجنوبي، وقد اتَّضَّحَ لدى أعضاء البعثة الأثرية أنَّ محتويات هذه القبور الجدارية قد نهبت بفعل تنقيبات سرية سابقة[٤٢].

ومع الأسف الشديد أنَّ البعثة لم تعثر على كتابة على أي من التابوتين.. الرخامي المصور، والبازلتي المبكل بحزامٍ مثبت بجسم التابوت بالرصاص المصهور، بستٍ من البكل، اثنتان في واجهته الأمامية والخلفية وواحدة في كل من جانبيه الأيمن والشمالي. وواحدتها

٤٢ ــ نفس المجلة /ص ٦٥/.

/٥ر٣×٢ سم/ طرفاهما ملتويان أمسكا بالتابوت والغطاء، كما قلنا بالرصاص المصهور، في الحفر التي أُحْدِثَتْ لهما[٤٣].

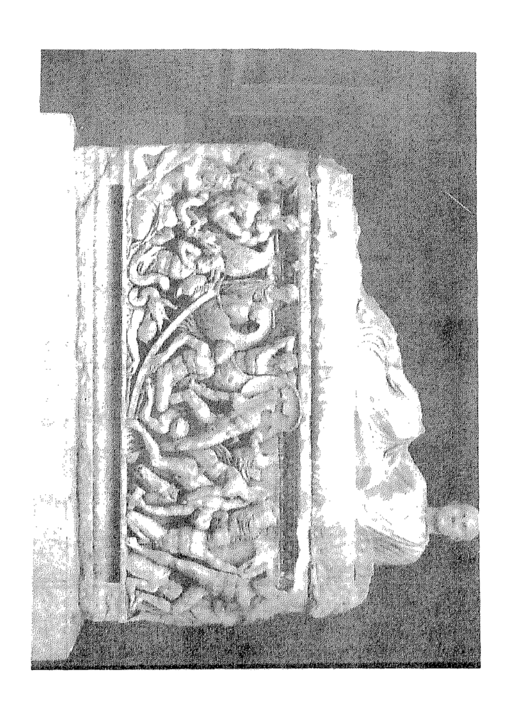
وللأمانة العلمية، علينا أن نعرض ونقدم جهود البعثة الأثرية خلال إثني عشر يوماً من العمل الدؤوب، والذي كانت حصيلته هذه القائمة من اللقى الأثرية التي تضمنت ما يلي:

٤٣ــ نفس المجلة /ص٦٦/.

الموجودات الأثرية التي جمعتها البعثة الأثرية في الموقع الأول للتابوت المصور قبل نقله إلى مكانه الجديد غربا

الموقع	التاريخ	المربع	نوع الأثر	الطبقة
مكان إكتشاف التابوت	١٩٧٧/٦/٦	4-G	قطعة نقدية نحاسية مصورة رأس إنسان على وجه ومعبد بالآخر.	الأولى ٥٠ سم
مكان إكتشاف التابوت	٥ و٩/٦/١٩٧٧	5-5-G D-F-F	أجزاء فخارية مختلفة النماذج.	الأولى
مكان إكتشاف التابوت	١٩٧٧/٦/٧	7-F	خيوط ذهبية رفيعة.	الثانية

مكان إكتشاف التابوت	١٩٧٧/٦/٨	12-H	أجزاء فخارية مرممة بالرصاص المصهور.	الأولى ٦٥ سم
مكان إكتشاف التابوت			أربعة أجزاء فخارية مرخرفة دهانياً في بعضها.	الثانية ١٥٥ سم
مكان إكتشاف التابوت	١٩٧٧/٦/٩	12-G	بكاية زجاجية وقرطان زجاجيان أسودان وقرط برونزي.	الأولى
مكان إكتشاف التابوت	١٩٧٧/٦/١٥	12-E	رقائق ذهبيةثُلاثٍ بشكل معين مضغوط ٥ر٥×٥ر٧ سم.	الثانية
مكان إكتشاف التابوت	١٩٧٧/٦/١٥	7-F	خيوط ذهبية دقيقة.	الثانية
مكان إكتشاف التابوت	١٩٧٧/٦/١٥	7-E	بُكُلّ لجوانب التابوت الست بالرصاص المصهور من حديدٍ بعرض ٥ر٢×٢٥ سم.	الثانية



تابوت رخامي مصور عليه مشاهد حرب طروادة عثر عليه في الرستن

هذاَ وقَدْ خَمَّنَ أعضاء البعثة الأثرية ، أنَّ صورة صاحب التابوت الرخامي المصور على الغطاء ، هي للأمير العربي ملك أريتوزا ، شمشيغرام أو أحد القواد العظام فيها . وهذا القول يناقض ما ذكره رئيس البعثة الأثرية في بحثه القيم عن التابوت الرخامي ، من أنَّ التابوت المذكور وُضِعَ في البناء المعد له أصلاً بحدود عام /٢٠٠ م/ . وأنَّ التابوت البازلتي وُضِع بعد إخراج التابوت الأول بحدود عام /٦٠٠ م/ . هذا ومن المعلوم أنَّ ملك قلعة أريتوزا حكم بين أعوام /٦٠ ــ ٤٤ ق . م/ . إذاً يبقى الإفتراض الثاني وهو أنَّ التابوت الرخامي المصور هو لأحد القادة العظام الذين استقروا في أريتوزا .

ولا بد للقارئ أنْ يُدْهَش من نقل كتلة التابوت من شواطئ بحر إيجة أو بحر مرمرة بحراً إلى الشاطئ السوري وذلك لخلو بلادنا من الأحجار الرخامية ، ثم نُقِلَ بعد ذلك براً إلى داخل البلاد ، فإلى أريتوزا ، ونحن ندرك المشقة في نقل هذه الكتل الضخمة من الحجارة ومن الصعب علينا أنْ نُدْرِك ثقل وطأة عمل كهذا قبل استعمال الآلات الرافعة ، وعجلات البخار ، وسائر الوسائل الحديثة التي توفر الراحة ، وقد بقيت لنا بعض الوقائع الحية ، لندرك ما كان عليه هذا العمل ، فيمكننا أنْ نقرأ تفاصيل كاملة عن نقل المواد التي لزمت لإقامة أثر

مهمٍ ، في نصٍ من القرن الرابع قبل الميلاد ، لقد تضمن العمل ثلاثة مراحلٍ :

أولاً : تمهيد الطريق من المحجر إلى المدينة وكان يُرصَفُ بأحجارٍ منحوتةٍ مع وجود طرقٍ جانبية على مسافات عدة... وثانياً عمل عرباتٍ تقوى على حمل كتل الأحجار. وثالثاً وأخيراً عملية النقل نفسها ، وتقوم بها عرباتٌ يجرها الثيران. ويتكلف كل زوجٍ من الثيران أربع درخمات ونصف يومياً ، ويستغرق النقل ثلاثة أيامٍ لمسافة طولها /٣٠ ميلاً/. ولما كان جر الكتلة الواحدة يستلزم /من ٣٠ إلى ٤٠/ زوجاً من الثيران[٤٤] ، **فإننا ندرك النفقات الباهظة التي تستلزمها هذه** الأعمال والتي لا يقدر عليها إلَّا الأثرياء...

وفي حمص والرستن ازدهرت الحياة الاقتصادية أيما إزدهار ، في القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الميلادي ، وانعكس تأثير التقدم السياسي والاقتصادي في ظهور الحركة العمرانية ، وفي ازدياد النشاط الفكري ، وظهر للفن السوري مميزات وخصائص ، واشترك فن النحت مع فن العمارة ، في تزيين المدن بالنقوش والزخارف والتماثيل ، وانصرف

---

٤٤ ـ الحياة العامة اليونانية /الفرد زيميرْن/ص ٣٣١/ ترجمة الدكتور: عبد المحسن الخشاب.

إلى اقتباس مواضيع أعماله الفنية ، من قصص الأساطير ومشاهد الحياة اليومية[٤٥] .

هذا وقد كان وراء إنشاء الأوابد التاريخية والزخرف والرسوم والنحت في المدن السورية فرقٌ لها شهرتها وتقاليدها الفنية ، وقد شارك في إبداع تلك الإنجازات الخالدة البنَّاء والنحَّات والفنَّان والرسَّام.. ويذكر السيد رئيس البعثة الأثرية التي نقبت في موقع التابوت الرخامي أنَّ :«الذي أحيا خلال أكثر من مئة سنة نقوش تدمر هي فرقة المقاول / مرقيا نوس كيريس / وأنَّ الرَسْتَن ليست عنها ببعيدة» .

وبالفعل من يشاهد الأعمدة الملقاة أرضاً في الرستن وتيجانها القايية القابعة بجانب أبواب مساكن بعض المواطنين وزخارفها يدرك لأول وهلة عُظْمَ وشدة الشبه بين الزخارف التدمرية والأريتوزية .

وقدْ كتبتُ مقالة عن التابوت في جريدة العروبة فور إكتشافه قلتُ فيها :

كل شعبٍ يهوى الحياة سيدري
ما وراء الأسرار من آثـــــار

[الشاعر حليم دموس]

---

٤٥ ــ مجلة الحوليات /ص ٨٥/.

قطعة حية من تاريخ أريتوزا المطمور في التراب كشفته معاول المنقبين الأثريين وأزاحوا الستار عن تلك اللقية المدهشة وعبارات المؤرخ بليني /٢٠ ق . م ـــ ٧٩ م / ماثلة في أذهان محبي التاريخ : «أحترم مجد المؤسسين القديم ، وشيخوخة الإنسان المكرمة ، وقداسة المدن العريقة ، أدِّ الإكرام للآثار والإحترام للأعمال العظيمة ولا تُحَقِّرنَ الأساطير» .

وقد كتبت بعض الصحف ومنها /العروبة/ أوصافاً أولية للتابوت بعد أنْ حُدِدَتْ فترته الزمنية من قبل المختصين من علماء الآثار السوريين ، وكان لمحبي الآثار والتاريخ بعض الملاحظات :

١ ـــ يلاحظ أن تلافيف العباءة الرومانية وهي الرداء الروماني الأصيل ، وقد اعتاد الرومان الإحتفال بالصبية الذين يبلغون سن الخامسة عشرة ، أنْ يُلْبِسُوهُمْ أثناء الإحتفال عباءة من نوعٍ خاصٍ ترمز إلى نمو الصبي ، وبلوغه مرحلة الشباب .. تشبه تلافيف العباءة التدمرية ، وفي أسفل العباءة توشيه .

٢ ـــ إفريز الغطاء مقسم إلى مستطيلات تحوي كل منها صور امرأة ورجل ، وحركاتهما التعبيرية تختلف من صورة لأخرى . وفي عرض الإفريز توجد معينات ضمن المستطيلات ، وضمن الفراغ الحاصل بين الشكلين الهندسيين توجد / نجمة / وهذه النجمة توحي وترمز إلى المجرة السماوية عند الأمم القديمة على الأرجح ...

٣ ــ أما هيكل التابوت فالمشهد الرئيسي موجود على أحد الجوانب الطولية، توجد صورة امرأة، شعرها منسدل على كتفيها، وأنفها أقنى دقيق، وفم ذو شفةٍ مضمومة، وعيون ذات نظرات حالمة. وتعتبر هذه الصورة درة المشهد بلا منازع.. وأمامها نرى الإله بوسيدون إله البحار على الأرجح باعتبار أنَّ المشهد يضم سفناً حربية يونانية.

٤ ــ وفي أعلى المشهد وإلى اليسار، توجد إلهة تهبط من السماء وتشرف على تلك الحرب الطروادية.

٥ ــ أما وجود رؤوس الأحصنة في المشهد، فيرمز إلى إشتراك القوات البرية في تلك الملحمة التي دارت بين سكان طروادة والإغريق الغزاة والتي دامت عشر سنوات ونيف من عام /١١٩٢ ــ ١١٨٣ ق.م/

٦ ــ المتأمل في مشاهد التابوت، يرى على جوانب إفريز الهيكل كلاب صيد جاهزة، ومستعدة لملاحقة الطرائد البرية، كالأرانب وغيرها، فيستنتج أنَّ صاحب التابوت مغرمٌ بالصيد البري..

أما وجود النسر على الجانب الخلفي من التابوت فهو لحمل روح الميت في العالم الآخر، حيث يعتبر النسر عند القدماء في الشرق هو طير الشمس المكلف بحمل الأرواح.

وفي هذا الجانب من هيكل التابوت نرى أنَّ ضربة الإزميل تختلف عنه في الجوانب الأخرى، حيث تُرى الخشونة، أما في الأولى فتبدو النعومة والدقة والحركة. أما عبقرية الفنان الرائعة فقد بلغت حد الإعجاز البشري بأجلى معانيه.

«وقلتُ في نهاية المقالة المذكورة: إذا كانت فارسة الأمازون والتي سُرِقَتْ من آفاميا، ثم أرجعت إلى الوطن بعد غياب دام خمس سنوات بجهود مديرية الآثار والمتاحف عام /١٩٧٤/ من الولايات المتحدة الأمريكية والتي قُدِّرَتْ قيمتها بخمسين ألف دولار فبكم يمكن تقدير قيمة هذه الدرة الثمينة .؟!

يمكن اعتبار هذه التحفة التاريخية حافزاً للقيام بعملية مسح أثري شامل لبلدة الرستن والمذكورة في المراجع التاريخية القديمة»[٤٦].

وللحقيقة والتاريخ نقول أنَّ الرستن لم تفصح عما تخبئه من الكنوز الأثرية، وعملية اكتشاف التابوت البازلتي والمدفن المنهجية، هي الأولى من نوعها في مدينة الرستن ككل، وأعود إلى الغابة البشرية الموجودة على صدر التابوت ونقتطف النبذة الشيقة عن تالاسا: «وهي أبرز صورة في الوجه من الشمال متكئة على وركها الأيمن، كما اعتادت

---

٤٦ ــ جريدة العروبة /العدد ٣٩٢٢/ وتاريخ ١٩٧٧/١٠/٢٠م.

من قبل أن تجلس على أريكة إلى جانب رب البحار وتتأبط بيدها اليمنى مجدافاً ، وباليسرى تنيناً ضخماً ممتداً من ورائها على كتفها الأيسر ، بينها وبين / آخيل / إلى رأس قرينها / بوسيدون / سيد البحار ملامساً إحدى قوقعتيه ، وبجانبها دلفينان يتجهان للأمام . وشعرها مرسل بجانبي صدغيها حتى ثدييها البارزين بتموجٍ لطيف ، تبدو من خلاله ملاقط عظام سرطان البحر » .

«إنَّ جسمها عارٍ باستثناء أدناها المغطى برداء يزيد طرفه أمامها ، وقد أَحْدَثَ بالتفافه على فخذها ومن تحته أيضاً تجعداتٍ متموجةٍ ، وانصبت ركبتها اليسرى على شكل زاوية قائمة بينها وبين بوسيدون » .

وفي الصورة تحقيقٌ حي لمعاني الأبداع في النحت والتصوير والتعبير الخاص بالوجه الجميل بعمقٍ وتأملٍ عن الحالات التي انعكست بها حياة / امفتريت ـــ تالاسا / فضلاً عن العواطف والمشاعر للحالة النفسية التي تملأ جوانبها . إنَّ / لتالاسا / مقاماً سامياً بين بنات / زوس / الخمسين ومن بينهن / أريتوزا / نظراً لسمو مقام زوجها بوسيدون ، وهي الزوجة الشرعية . وكان قد اختطفها دولفين من أقصى البحار . وله منها الإله / تريتون / ساكن البحار ، ومعبود البحارة ومنجد



تالاسا: إلهة البحار والينابيع

بحارة / أرغو / حينما قذفت بسفينتهم العاصفة إلى يابسة ساحل ليبيا . وقد نسجت حوله ديانة وأساطير ، وهو يبدو برأس إنسان وذيلي سمكة .

« ومثل الفنانون / امفتريت ـــ أو تالاسا / محاطة بحيوانات بحرية ، وتجلس على حيوان بحري وشعرها متموجٌ ، وتوجد على صحيفة محفوظة

في باريس / القرن الرابع / كفتاة شابة بثوب شفاف قصير ، تُقَدِّمُ إكليلاً من الزهر إلى / نبتوس / . كما وجدت لها صورة رائعة بالفسيفساء مع بُوسيدون في مدينة / هيركولا نوم / بإيطاليا / القرن الأول الميلادي / وَوُجِدَتْ على أحد توابيت مدينة صور في لبنان ، بنفس مكانها في الجانب الأيسر من الوجه الأمامي . منفردة عن بوسيدون وغير مصحوبةٍ بشيءٍ وشعرها مجموع في شبكة غير مسبولٍ . وطرف الرداء قد التَّفَ على زندها الأيمن»[٤٧] .

أما التابوت الآخر الذي سنقوم بإعطاء لمحة قصيرة عنهُ ، فقد عُثر عليه في الجهة الغربية من الرستن في دار أحد المواطنين ، الواقعة في عداد المساكن الشعبية الحديثة ، وهُرِّبَ إلى خارج القطر بعد تقطيعه ليسهل حمله ، حيث يربو وزنه على أربعة ونصف من الأطنان وهو من الرخام . كتابوت حرب طروادة ، وقد مثلت عليه مشاهد أسطورة / ملياغر بن التيه / الإغريقية اقتنته مديرية الآثار والمتاحف واستطاع المعمل الفني أنْ يرممه وهو محفوظ في حديقة المتحف الوطني بدمشق .

التابوت طوله /٢٠٦ سم/ وعرضه /٨٨ سم/ وارتفاعه /١٩٣ سم/ وسمك جوانبه /١٥ سم/ . على الوجه الأمامي من التابوت

٤٧ ـــ الحوليات الأثرية / شحادة ص ٥٢/ .

صورة الربة / ديانا / وإلى يمينها كلبٌ وأمامها ستة أشخاص ينقضون على الوحش الكاسر ، وقد بدا شخصٌ واقفاً على الأرض . وهذا المشهد يمثل أسطورة إغريقية تلخصُ بما يلي :

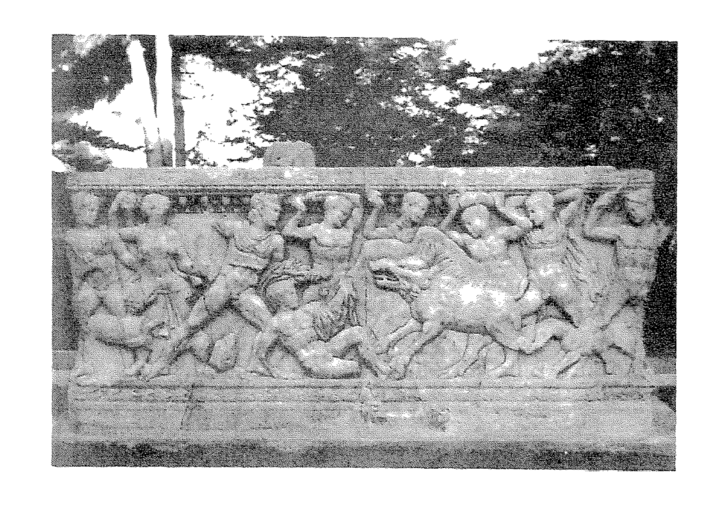
« تنبأت الربة ــ أتروب ــ منذ ولادة ملياغر بن التيه ــ بأنَّ حياته تنتهي بانتهاء الشعلة ... مما جعل أمه / التيه / تحتفظ بالشعلة في صندوقها . وعندما أصبح ملياغر يافعاً وأساء إلى الربة أرتميس ، انتقمت تلك الربة بإرسالها خنزيراً برياً أسطورياً ، هبَّ للقضاء عليه أبطالٌ عديدون ، واستطاعت العذراء المحاربة ــ أتلانت ــ أنْ تكون أوَّل من أصاب هذا الحيوان الكاسر . كما تمكن ملياغر من القضاء عليه ، وكان هذا النصر قد أثار غيرة اخوانه ، مما دفع ملياغر إلى قتلهم فاستحق بذلك لعنة أمه » ...

أما على الوجه الخلفي الكبير : حيوانان مُجَّنحان متقابلان ، تتوسطهما شعلة مطابقة إلى المشهد الرمزي الموجود على تابوت (حرب طروادة)(٤٨) .

وبتاريخ ١٥/١٠/١٩٨٧م أخبرني أحد المواطنين أنَّ ما يشبه الحمام بكامل مقاساته سيقوم فوقه بناءٌ حديث ، فهرعت إلى المكان

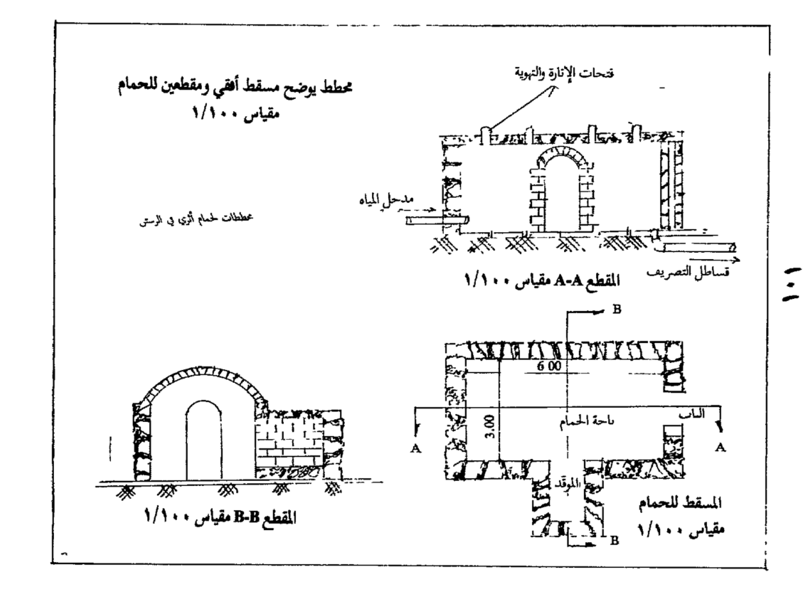
---

٤٨ ــ ملحق جريدة الثورة الثقافي العدد /٣٣/ تاريخ ٢٠/١٠/١٩٧٧م.



تابوت من الرخام عليه مشاهد أسطورة ملياغر عثر عليه في الرستن

المذكور، وإذ بنا نفاجأ بحمامٍ في نفس البقعة من الأرض التي اكتشف فيها التابوت المصوَّر، والتابوت البازلتي المبكل، وخزان الماء الرئيسي لأريتوزا القديمة. ويمكن أنْ يكون الحمام المذكور لنفس الأمير الروماني صاحب التابوت المصور، أو غيره، فأحضر لنا أصحاب العقار المذكور سُلَّماً ومصباحاً كهربائياً سياراً من الدار المجاورة. وهبطنا إلى داخل الحمام، فرأينا بناءه الهندسي الذي يتألف سقفه على شكل نصف دائرة.. يأخذ اتجاهاً /غرب ـــ شرق/ وفي منتصف ضلعه الجنوبي أحدث فراغ بشكل مستطيل.. خمنَّاه لإيقاد النار وتسخين الماء. ومن المعروف أنَّ الحمامات في العصر الروماني كانت بمثابة النوادي في العصور الحديثة، ولاحظنا أنَّ البناء خالٍ من الزخرفة والنقوش. وأخبرني صاحب العقار، أنَّ هذا البناء قبل ثلاثين سنة كان يوضع به الحطب لاستخدامه في التدفئة المنزلية قبل استخدام مدفأة المازوت الحديثة ولما بَطُلَتْ وظيفته، أهيلت عليه الأتربة مرة أخرى، فلربما أزيلت معظم الزخارف والبلاط الجميل، فور اكتشافه في المرة الأولى والله أعلم. وكانت المياه تزود الحمام المذكور من خزان أريتوزا الواقع إلى الشرق منه بمسافة قصيرة.. ووجدنا أيضاً جداراً من الملاط الفخاري بدايته من باب الحمام ويتجه شرقاً تحت الأرض إلى جهة مجهولة وقد قمنا برسم مسقط أفقي لهذا البناء، وهو الآبدة الرومانية التي بقيت شاهدة على رقي أريتوزا في تلك العهود.


مخطط يوضح مسقط أفقي ومقطعين للحمام
مقياس ١/١٠٠
مخططات لحمام أثري في الرستق
فتحات الإنارة والتهوية
مدخل المياه
قساطل التصريف
المقطع A-A مقياس ١/١٠٠
المقطع B-B مقياس ١/١٠٠
B
6.00
3.00
A
الباب
باحة الحمام
A
الموقد
B
المسقط للحمام
مقياس ١/١٠٠

خزان الماء : أما خزان الماء الرئيسي الذي كان يزود سكان أريتوزا بمياه الشرب ، فيقوم إلى الشرق من مكان التابوت المصور .

وتشاهد آثار القناة الأم ممتدة إلى الجنوب من المدينة ، وهي مستمدة من بحيرة قطينة ، حيث تُرى فروع التوزيع . وأنَّ أحد فروعها يمتد للغرب مسافة / ٤٠٠ م/ ليصب في خزان ماء كبير أقيم أمام مبنى التابوت المصور . وبينهما مسافة / ٣٠ م/، وبناؤه من حجرٍ في جُدُرُهُ وآجر في سقفه على شكل نصف أسطواني . يتألف من فنائين متعارضين يتصلان بمدخلٍ بينهما وله مدخل رئيسي يتجه للشرق ، وثلاث فتحات من طرفه الغربي[٤٩] .

وقد سبق أنْ قلنا أن معالم هذا الخزان قد أُزيلت بسبب البناء الذي أقيم مكانه ولم يبق منه ظاهراً إلَّا قسمٌ من الجدار الشرقي ، وفتحات الماء المنقورة ضمن أحجار الخزان الهائلة .

وفي الشمال من البلدة القديمة قرب دار / آل ادريس / يشاهد المرءُ بقايا جدار خزان آخر للمياه بارتفاع /٢٫٥ م/ وعرض /٢ م/ . وعندما أراد مالك العقار أنْ يقوم بتجديد الدار على النمط الحديث دُهش من كثرة أنابيب المياه الفخارية الموزعة حسب الجهات الأربعة ....

---

٤٩ ــ الحوليات الأثرية / شحادة ص ٥٢/ .

أوابد ومدافن أخرى

وفي البلدة القديمة تشاهد بعض التوابيت التي كانت مرقداً أو مثوى لمتوفين وفي الجنوب الشرقي من البلدة وغرب معمل الأسمنت، وخلف دار /عبد الرحمن مطر/ لا يزال المدفن الجماعي. وفي داخله تابوت ضخمٌ وفي جدارِ المدفن بعض المدافن الجدارية لموتى آخرين.

وفي غرب البلدة في أقصى الشمال الغربي وعلى جانب الطريق الذي يصل إلى مقصف السد من الجهة الغربية، وفي أرضٍ تعود ملكيتها للمواطن /حسين طلاس/ عُثِرَ حديثاً /١٩٨٧/ على مدفنٍ جماعي يحوي داخله أكثر من خمسة وأربعين قبراً جدارياً، متركزة على الجانبين الشمالي والجنوبي، ولكن لم يعثر على بقايا بشرية لمتوفين، فلربما عُدِل عن استخدام المدفن الجماعي في آخر لحظة لسبب أو لأسباب نجهلها نحن ووُجِدَتْ في جدر المدفن كتابة تذكارية ولكننا لم نتمكن من رؤيتها، ومقاسات المدفن المذكور هي: الطول /١٠ م/، والعرض /٢ م/ والارتفاع /٥٠ سم/ وجدران كافة المعازيب الجنائزية مبنيةٌ من ألواحٍ فخارية صلبة تعادل في صلابتها أحجار البازلت، وذلك لأن المدفن محفوراً ضمن تربة رخوة /بيلونية/ وسريعة الإنزلاق، أما سقوف المعازيب فتأخذ شكل نعل فرس.

الـموارنـة وديـرهـم / ديـر بَلّـور / فـي الـرسـتـن

في العهد البيزنطي تبوأت مدينة الرستن مكاناً دينياً مرموقاً ، حيث كانت إحدى الأسقفيات ، وكانت سورية في نهاية القرن الرابع الميلادي مقسمة إلى عدة مقاطعات ، فقسمها الشمالي الذي احتفظ باسم سورية قُسّم إلى جزئين : سورية بريما / الأولى / ومركزها أنطاكية ومن مدنها الرئيسية ، سلوقية ولاوديسة / اللاذقيـة / وجبلـة ، ويبرويـا / حلب / وخالكيس ، ثم سورية سكوندا / الثانية / ومركزها آفاميا . من توابعها أبيغانيا / حماة / وأريتوزا / الرستن / ولاريسا / شيزر / .

وقسمت فنيقيا أيضاً إلى فنيقيا الأولى وتوابعها مدن لبنان الحالي الساحلية ، ثم فنيقيا الثانية ومركزها حمص ، وتضـم دمشق وهليو بوليس / بعلبك / وتدمر ، وقد قُسِمَّتْ فلسطين إلى فلسطين الأولى وعاصمتها

قيصرية. وفلسطين الثانية ومركزها سكيثوبولس / بيسان / وفلسطين الثالثة ومركزها البتراء[٥٠].

وهنالك تقسيمٌ إداريٌ آخر لبلاد الشام في العهد الروماني ــ البيزنطي جاء فيه:

«الشام الأولى من جسر يعقوب إلى جسر الرستن. الشام الثانية: من جسر الرستن إلى نهر الفراة (هكذا وردت في المخطوط). ولننقل كلمات / مكاريوس / بالجرف وهي منقولة من كتاب المجامع المسكونية السبعة:

الشام الأولى من جسر يعقوب إلى جسر الرستن وأما الشام الثانية فهي من جسر الرستن إلى نهر الفراة، وهذه المدينة فأكرموها / هكذا / الآباء لأنها قبلت الإيمان المسيحي سريعاً وفيها ثمانية أساقفة: فالأولى مطران هذه آفامية المدعو الآن: تامر».

«الثانية لاريصا الشام، الثالث وهي الرستن الرابع أبيغانيا وهي حماة. الخامس وهي ماريانيس / وهي مريمين / السادس مانا الأولى: وهي القدموس السابع سالفكو فيلوء وهي شيحر الثامن: كانوفا وهي الخيئيط»...

٥٠ــ تاريخ شيزر / عزيز رزوق / ص١٠٧/.

وفي الكتاب ذكرٌ لرؤساء الكنائس الذين حضروا ترئيس الأسقف /كيرمكاريوس/ على الكرسي الرسولي في أنطاكية، وهم ثمانية عشر بطريركاً[٥١].

ومن الجدير بالذكر أنَّ الرستن اشتركت في الجدل الديني الذي ذَرَّ قرنه في العهد البيزنطي حول طبيعة المسيح عليه السلام .. وأرسلت الرستن أربعة أساقفة ليمثلوها في أربعة مجامع مسكونية.

«لقد إستمرت فيها العبادات الوثنية حتى الشطر الثاني من القرن الرابع الميلادي، حيث أمر الملك قسطنطين الثاني بإغلاق المعابد فيها وبتحويل أكبر معبد فيها إلى كنيسة، وبذلك أصبحت المدينة مركز أسقفية كان من أساقفتها /مرقص الأول/ الذي شهد المجمع الخلقدوني سنة /٤٥١ م/ و/افستاكيوس/ الذي حضر المجمع النيقاوي سنة /٥٢٥ م/ و/سابيوس/ و/سوريانوس/ متولي الأسقفية فيها في أوائل القرن السادس الميلادي ... والأسقف إبراهيم متوليها قبل التئام المجمع الخلقدوني سنة /٦٨١ م/»[٥٢].

ونلاحظ في النص خطأ تاريخياً حيث أنه في سنة /٦٨١ م/

---

٥١ ـــ المجامع المسكوبية السبعة /الأسقف : كيرمكاريوس/ص ٥٧ + ٥٨/.
٥٢ ـــ الحوليات الأثرية /شحادة ص ٥٨/.

إلتأم المجمع الخلقدوني وشاركت فيه الرستن بشخص اسقفها ابراهيم. ومن الملاحظ أنّه في هذا العام /٦٨١ م/ كان هنالك جيشان إسلاميان يحاصران عاصمة الروم البيزنطيين / القسطنطينية / إحداهما في البر والثاني في البحر بقيادة إبن الخليفة الأموي معاوية، يزيد بن معاوية بن أبي سفيان والأصح أنْ يقال عن التئام المجمع المذكور في عام /٦١٨ م/.

بينما ورد في مخطوط كتاب المجامع المسكونية السبعة والذي نُقِلَ من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية، ذلك لأن الكتب التي تبحث في شأن الدين المسيحي باللغة العربية كانت معدومة، حسبما جاء في مقدمة المخطوط، أنَّ الرستن شاركت في جلسات المجمع الكنسي الأول ممثلة بالأسقف / لاونديوس / بناءاً على دعوةٍ من الملك قسطنطين وكان عددهم /٣١٨/ أسقفاً.

دام المجمع المسكوني الأول ثلاث سنوات ونصف، حيث حرم الأسقف / آريوس / وإبطال دعوته.

في عام /٣٦٢ م/ أرسلت الرستن أسقفها / ناطروفيلو / إلى المجمع المسكوني الثاني الذي عقد في القسطنطينية في عهد الأمبراطور / تاودسيوس / الكبير وعدد أعضاء المجمع /١٥٠/ أسقفاً. وقد ثار الجدل في هذا المجمع حول آراء / مكدونيوس /.

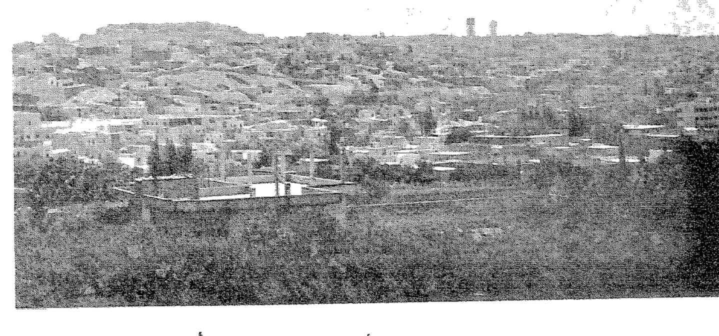
بعثت الرستن الأسقف /يوليانوس/ إلى المجمع الثالث حول بدعة الأسقف نسطور.

في المجمع المسكوني الرابع، نرى اسم الرستن يأخذ الدرجة الرابعة عشر في تسلسل المدن المدعوة إلى المؤتمر بشخص أسقفها /ملاتيوس/... (مما يدل على الدرجة العظمى التي وصلت إليها مدينة الرستن في العهد البيزنطي، من الكاتب).. حضر المجمع المسكوني الرابع /٦٣٠/ أسقفاً.

في المجمع الخامس نرى تدمر تبعث بأسقفها بطرس...(إنتهى الإقتباس من كتاب المجامع المسكونية السبعة).

وعندما قام أتباع مار مارون الذين تركوا منطقة آفاميا بالهجرة إلى وادي العاصي الأوسط. على أثر الضغط الذي تعرضوا له من اليعاقية ببناء دير على جانب عظيم من الأهمية هو /دير بلوّر/ الذي أضنى العلماء في البحث عنه.

وهذه لمحة وجولة خاطفة عن الموارنة وديرهم /دير بلّور/ ما دام مسرح الحدث هو مدينة الرستن، فلا نتريب من كتابة بحثٍ عن الدير وأتباع البطريرك /مار مارون/، خاصة أنَّ هدفنا الحقيقة العلمية للحق ولوجه الحق وحده.



منظر للرستن الحديثة ويبدو في أعلى الصورة المرتفع الذي أقيمت
عليه أعظم كنيسة في الرستن

«قال سيادة رئيس الجمهورية العربية السورية الفريق حافظ الأسد لإحدى وكالات الأنباء العالمية في ربيع عام /١٩٨٦/ أنَّ شفيع الموارنة مدفونٌ في الرستن وأنَّ الموارنة عرب».

وعلى أثر هذا الحديث كثر السؤال حول هذه العبارات التي لم تطرق أذهان الكثيرين من أبناء العروبة، فَجُلُّهم يعتقد أنَّ الموارنة في لبنان الشقيق هم من بقايا الجراجمة والمردة، الذين هاجروا من جبال الأمانوس في شمال غرب سورية إلى لبنان، ونتيجة الأحداث الدولية والسياسية والإستعمارية اعتقد كثير من العرب، أنَّ الموارنة عربيو الجلدة واللسان، غربيو القلب والوجدان، ونتيجة تكريس هذه النظرة، استفادت دولة أوروبية من النزاع الطائفي الذي شَبَّتْ أواره /١٨٦٠م/ ونصبَّتْ من نفسها حامية لهذه الطائفة المذهبية، واعتبرت نفسها حامية للموارنة، وهكذا تمضي السنون وتأتي الحرب الأهلية في لبنان التي أحرقت الأخضر واليابس، نتيجة أصابع الدول الإستعمارية والصهيونية الغاشمة، فينجذبُ بعض الموارنة الغلاة، إلى السياسة الإستعمارية، ويقومون بعرقلة الجهود التي تقدمها سورية العربية لتنظيم البيت اللبناني وتنشيطه وإعادة الدم إلى نبضهِ، إذا وجب على الحرف أنْ يأخذ مكانه، لبيان الحقائق الدامغة، حتى كانت كلمات القائد التي أماطت اللثام عن حقيقة تاريخية، وسَجَّلَتْ تاريخ ما أهمله التاريخ.

وها نحن نسوق الأدلة الواقعية التي توصلنا إليها بعد قناعتنا، وثَبَتَ بما لا يقبل الجَدَلْ أنَّ دير رهبان الموارنة / دير بلوّر / ومعظم أفراد الطائفة المارونية هم من العرب وعاشوا على ضفاف العاصي ومركز ديرهم في الرستن، وهذه القصة من بدايتها :

سبق للدكتور / فيليب حتي / اللبناني الأصل والأمريكي الجنسية، وهو أحد أساطين المؤرخين، أنْ ساق الأدلة على عروبة الموارنة .

« وتقول بعض الروايات أنَّ أشهر العائلات المارونية، قَدَمَتْ من بلدة / صدد / التي لا تزال إلى يومنا هذا بلدة سكانها مسيحيون يعاقبة ومن هذه الأسر : عائلة السمعاني، وعواد والشدياق وثابت والدبس، ويرجع آل التيان وآل سركيس نسبهم إلى عائلات كانت تسكن القريتين »[٥٣] .

« أما آل الخازن وآل ملحم فهم من عرب الجنوب / غساسنة / وأنَّ جدودهم أتوا إلى العاقورة بطريق دمشق »[٥٤] .

---

٥٣ ـــ لبنان في التاريخ / فيليب حتي / ص ٣١٢ / .
٥٤ ـــ نفس المصدر / ص ٣١٢ / .

وخلاصة ما يعنيه المؤرخ المرحوم حتي: أنَّ المارونية مذهب وليست شعباً اعتنق أفراده ديانة خاصة بهم.

وهناك مصدر عربي ينص «وأقام هؤلاء الجراجمة من أنفسهم بين بلاد العرب وبلاد الروم جداراً يصون آسيا الصغرى، /تركية الحديثة/ من الفتح العربي، وحوالي /٦٦٦ م/ تطرقت شراذم منهم إلى قلب لبنان، فكانوا نواة التُّـفَ حولها عددٌ كبير من الناقـــمين والمضطهدين.. ومنهم الموارنة»[٥٥].

وجاء في كتاب خطط الشام لمحمد كرد على «لُقِّبَ أهل لبنان بالمردة أي العصاة. لعصيانهم أمر ملك الروم في عدم التعرض للعرب». ويستمر المرحوم كرد علي في رواية الأحداث عن علاقة العرب مع المردة والجراجمة «أخذ جستنيان ملك الروم اثني عشر ألف مقاتل من المردة على رواية ـــ الدويهي ـــ إرضاءاً للخليفة الأموي عبد الملك بن مروان»[٥٦].

أما تعريب لبنان الشامل فقد حدث في عهد الخليفة / هارون

---

٥٥ ـــ تاريخ الدولة البيزنطية / الدكتور. نبيه عاقل / نقلاً عن فيليب حتي / تاريخ سورية المطول / ج ١ ص ٢٦٩ /.

٥٦ ـــ خطط الشام: المرحوم / محمد كرد علي / ج ١ ص ٣٠ /.

الرشيد/ ففي سنة /١٨٩ هـ/ أرسل الخليفة العباسي المذكور منشوراً إلى /ثابت بن نصر الخزاعي/ أمير الثغور الشامية ومناشير أخرى إلى عُمَّال الشام أنْ يطلقوا التنبيه في البلاد بالرحيل إلى لبنان لتشديد قوة أمرائه، فهاجرت مئات الأسر المسيحية، كما أنَّ الموارنة انتقلوا من أرجاء حمص، وسنير /جبل الشيخ/ وظلوا ينتشرون في أنحاء لبنان حتى وصلوا إلى كسروان والمتن والشوف[٥٧].

وهذا البطريرك /اسطفان الدويهي/ مؤرخ الطائفة المارونية اعتمد في تأليف تاريخه على المصادر العربية، ولم يكتب تاريخ الموارنة مستقلاً عن تاريخ المنطقة العربية الشرقية برمتها، بل كتب تاريخ الطائفة في علاقته الطبيعية، مع تاريخ المنطقة وقد اعتمد مبدءاً لتاريخه، هو تاريخ ظهور الدعوة الإسلامية، وليس بفجر الخليقة تبعاً لطريقة مؤرخي العرب المسلمين.. هذا وكان للبطريرك الدويهي والمطران جرمانوس فرحات.. والبساتنه وآل اليازجي وغيرهم دور مميز في هذا المجال، بحيث فَشَلَت مؤخراً كل محاولات ضرب اللغة العربية في أوساط الموارنة وإبدالها بلغة /لبنانية/ أو حرف لاتيني أو أي محاولات مشبوهة[٥٨].

---

٥٧ ــ نفس المصدر /ج١ ص٣١/.

٥٨ ــ مجلة الفكر العربي /السنة الأولى ــ العدد الثاني/ الدكتور: مسعود ظاهر /ص ٨٤/.

وبعد إيراد هذه الشهادات التاريخية على عروبة الموارنة، نأتي إلى جغرافية ديرهم الذي سارت بذكره الركبان وهو المقصود في هذه العجالة:

إنَّ مؤرخي الموارنة عجزوا عن تعيين موقع الدير بالضبط، نظراً لتضارب الروايات التاريخية القديمة، إبتداء بأسقف مقاطعة كوماجين شمال غرب حلب، وإنتهاء بياقوت الحموي، فأبي الفداء ذكر موقع الدير في حمص[٥٩].

وياقوت المذكور على كثرة ما أورد من أسماء الأديرة وموقعها في معجمه الشهير فلم يمس هذا الموضوع[٦٠].

أما في العصر الحديث، فهذا الأب المستشرق: هنري لامنس اليسوعي البلجيكي /١٨٦٢ ــ ١٩٣٧م/ وقد احتار في موقع الدير وما يقوله في هذا الخصوص: «فينبغي على الأثريين أنْ يَتَجَّولوا في تلك الأرجاء ويفحصوا الأخربة ويجمعوا التقاليد الباقية بين أهل تلك النواحي، ربّما يطّلِعُوا على أحوال هذا الدير الجليل الذي احتله مئون من الرهبان الصالحين»[٦١].

---

٥٩ ــ المختصر في أخبار البشر / ج١ ص٦٥/.
٦٠ ــ معجم البلدان / حرف الدال/ ح٢ ص٤٩٥/.
٦١ ــ تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من الآثار / ج٢ ص٨٢/.

ويقصد الأب هنري لامنس بتلك الجهات وادي العاصي من حدود بلدة آفاميا إلى مدينة حمص. ويُصَرّحُ في كتابه باسم الدير وهو /دير بلوَّر/.

قبل أنْ تغمر مياه السد في الرستن الأراضي التي كانت تحيط بمجراه، **كانت عائلتي تملك بستاناً يقع إلى الشمال من تلك /الخربة/** المترامية الأطراف، وغرب تلك /الخربة/ كان يقومُ معمل الكهرباء الذي كان يُنَّورُ حمص وحماة بالكهرباء وكانَ امتيازه لشركة بلجيكية مركزها بيروت في لبنان التي استَغَّلتْ منحدرات نهر العاصي في غرب الرستن عام /١٩٣٢م/[٦٢] ...

ونظراً لكون مدير المعمل الكهربائي من لبنان الشقيق وأرمني الجنسية، اسمه /وهَّان/ يساعده أخاه /ورتان/ كان اللبنانيون يأتون لرؤية المناظر الخَّلاِبَة التي كان المعمل يقع خلالها. وهي غابةٌ من الأشجار الباسقة المثمرة والحراجية وبالطبع لرؤية المعمل ذي الشلالات الفاتنة.. أقول كان بعض اللبنانيين يسألون عن دير /مار مارون/ فيتبسم أهل تلك النواحي ويرونهم الحجارة التي نقش على بعضها الصلبان، ولكن كان حُلُمُ السائلين بناءاً أو آثاراً شاخصة.

٦٢ـ- مجلة العمران /عدد خاص عن مدينة حمص/ص ٣٥/ دراسة بقلم المهندس نوري الدالاتي.

وفي عام ١٣/٥/١٩٨٥ ترامى إلى مسامعي وجود كتابة على ساكف بازلتي ضمن أغراس الدراق التي تقوم على أرض الدير وملكية الأرض بكاملها تعود إلى المواطن /علي إدريس/. فسارعت إلى المكان المذكور وعاينتُ معظم أرض الدراق بنظرةٍ فاحصٍ ومدققٍ يتلهف لكشف تاريخ بلدته وإظهاره إلى عالم الوجود، فهالني ما رأيتُ: حجراً أزرقاً بازلتياً أبعاده: /١٧٠سم×٥٦سم×٧٢سم/ فقمتُ على الفور بنسخ الكتابة المحفورة على وجه العمود البازلتي وأخذت القياسات له، خوفاً من عبثُ الأيدي التي لاتُقدِّر هذه الكنوز الخالدة في الضمير الإنساني. ثم سَرَّحْتُّ بصري إلى الجهة الغربية، حيث المنحدر السحيق إلى مكان المعمل الكهربائي البائد، فلاحظتُ أنَّ هنالك آثاراً لحمامات عدة بادية للعيان تنتظر معاول المنقبين، إلى هنا ووقف البحث، وعندما أذيعت كلمات مقابلة الرئيس القائد حافظ الأسد مع الوكالة الأجنبية رأيت من واجبي أنْ أستمر في البحث مادمتُ أملك أول الخيط من الضوء. فرجَعْتُ إلى المصادر التاريخية أستعين بها، وقُلْتُ لماذا لا ألجأ إلى علماء الدين المسيحي الأفاضل، فَقُمتُ بتدبيج رسالة إلى مطران حمص السيد /الكسي/ يوم ٢١/٤/١٩٨٦ حول انتشار المسيحية والدير المذكور في الرستن وأتبعتها بمحابرة يوم ٨/٦/١٩٨٦ إتماماً للفائدة، وقد أرشدني إلى مطران حماة لقراءة النص الذي قُمْتُ بنسخ حروفه وقد تشكلت لدي قناعة أنَّ دير بلوَّر الذي

يتداول اسمه معظم سكان الرستن بالتواتر، هو نفسه /دير بلّور/ الوارد اسمه في كتاب «تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من الآثار».

وفي ١٩٨٦/٦/١٠م اجتمعت مع كبير العائلة الذي يملك أرض الدير /مواليد ١٩٠٥ ووفاته ١٩٨٨م/ وأجاب على الأسئلة الأثرية الخاصة بالدير، حول أقنيـة الشرب والحمامـات والمعصرة.. والطاحونة والمقابر... وأفاد بأنَّ عدم وجود أحجار البناء الديرية حالياً ناجِمٌ عن نقلها من قبل سكان البلدة /الرستن/ لبناء مساكنهم، وبالفعل لقد رأيت في دارنا ذات الطراز العربي عدة أعمدة طولية رشيقة مستخدمة في بناء نوافذ إحدى الغرف.

وأفاض مالك خربة /دير بلوّر/ حول سفرات والده مع إخوانه إلى القبيات في لبنان ــ أثناء الإنتداب الفرنسي لكلا البلدين ــ كيف كان أهل البلد اللبناني يمطرونهم بأسئلة عن الدير وعظمته.

ولا يستغربن أحدٌ العثور على موقع الدير حتى الوقت الحالي، فالمدن البائدة مثل ماري، وإبلا /عبلة: الصخرة البيضاء/ وأوغاريت كلها أو بعضها حَدَّدَ المؤرخون أماكنها في غير المواضع التي وُجِدَتْ فيها وكُشِفَتْ وخاصة إبلا، وكانت الصدفة وحدها هي التي ألقت الضوء الكاشف على الواقع والحقيقة التاريخية.

وهنالك أيضاً في لبنان معلومات هامة عن الرستن باللغة الفرنسية في المجموعة الأنسكلوبيدية الدينية لدى دير البلمند للروم الأرثوذكس في جنوبي طرابلس ـــ لبنان /١١٥٧ م/ لم أستطع الوصول إليها ونرجو في المستقبل العثور على كتابات تاريخية لتكشف سجل تاريخ مدينة الرستن العريقة.

ولا أريد قَبْلَ أنْ أودع الكتابة عن الدير من الإشارة إلى تلك الصور على الساكف، حيث نحت بالأزميل إلى يسار الكتابة اليونانية بالتناوب صليب ثم يتلوه عنقود عنب يرمز إلى الخمر ويتكرر المشهد مرتين والصليب الأيمن أكبر من الأيسر، وفي زواياه الأربع تتوضع أربع دوائر وإشارات الصليب بمعزل عن مغزاها الديني، قديمة منذ عهد السومريين الوافدين إلى بلاد ما بين النهرين قبل /٤٦٠٠ ق. م/ على وجه التقريب. وَوُجِدَتْ أيضاً عدة صور لإشارة الصليب في أمريكا الجنوبية، وفي تركيا وغيرها.

«لم يقتصر أمر الصليب / رمزه / على الحضارات القديمة، وبعض الديانات العالمية، بل نراه رمزاً قائماً لدى كثير من الديانات البدائية الحديثة، فالهنود الحمر في كاليفورنيا يمثلون الأم الكبرى وقد امتدت أطرافها الأربعة على هيئة صليب، وتتخذ قبائل هندية أخرى الصليب كرمز للإتجاهات الأربعة والرياح الأربعة، لقد رافق انتشار صليب الأم

السورية الكبرى الإنسان منذ بداية مغامرته الروحية الكبرى، وما زال قائماً بيننا يؤكد وحدة التجربة الروحية للبشرية عبر العصور»[٦٣]

هذا وكثير ما رسم الصليب عند السومريين ضمن مشهد زراعي ليؤكد على ارتباط الإنسان منذ الأزل بأمه الأرض: ثوران يجران محراثاً له آلهِ باذرة، وفي أعلى المشهد صورة الصليب وهو يرمز للأرض الأم الكبرى، وعلى يسار الصورة دائرتان صغيرتان متداخلتان، ترمزان إلى أنَّ الإنسان مرتبط بالأرض مثل الجنين الذي يَرْتَبِطُ بأمه بواسطة الحبل السري.

أما شارة الهلال فقد استخدمت عند الأمم القديمة ولا زالت أيضاً عند الأمم الحديثة كرمزٍ للتقويم، حتى اهتدى الإنسان إلى التقويم الشمسي.. وفي القرآن الكريم ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَـازِلَ حَتَّى عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ (يس ٣٩).

وللعبادات والمناسبات الدينية نقرأ ما يلي: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ (البقرة ١٨٩).

وأخيراً نقول أنَّ هنالك عدة روايات حول خراب دير القديس

٦٣ـــ لغز عشتار / فراس السواح / ص ٩٢.

/ مار مارون / فالمسعودي المؤرخ العربي الموسوعي / توفي عام ٩٥٦ م / أشاد بعظمة الدير « دير مار مارون بنيان عظيم حوله أكثر من ثلاثمائة (!!!) صومعة فيها رهبان وكان فيه آلات من الذهب والفضة والجوهر ، شيء عظيم فخرب هذا الدير وما حوله بتواتر الفتن »(٦٤) .

ومن كلام المسعودي نستدل أن خراب الدير المذكور قد سبق القرن العاشر الميلادي ومن الجدير بالذكر أنَّ الدير كان موقعه بعيداً عن العمران ، وبالفعل فإن مكان الدير في الرستن يبعد عن البلدة بحوالي /٣ كم/ إلى الغرب منها ، يَحْجُبُهُ عنها تلالٌ مرتفعةٌ بعض الشيء .

والرواية الثانية تفيد أنَّ خرابه حَدَثَ في نهاية القرن الأول للهجرة « ومن الأحداث الهامة التي حصلت فيها / أي مدينة حماة / في أواخر القرن الأول الهجري ، في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان إرسال قيصر الروم .. قائدين اسمهما / موريق وموريفان / جاءا وخربا دير القديس مار مارون الذي كان على العاصي بين شيزر وحماة .. / والأصح الرستن / وقتلا رهبانه البالغين خمسمائة وشتتا شمل أتباع القديس »(٦٥) .

والمصدر الأخير الذي نسوقه الآن يفيد أنَّ خراب الدير كان

---

٦٤ ـــ تسريح الأنصار / لامنس ص ٨٥/ .

٦٥ ـــ جولة أثرية / ص ٦٨/ .

على أيدي المغتصبين ولم يُعَيِّن الكاتب لنا هوية هؤلاء المغتصبين : أنَّ هؤلاء الرهبان بعدد /٣٥٠/ خرجوا سنة /٥١٧م/ يريدون دير القديس سمعان العمودي، إذ هجم عليهم المغتصبون فقتلوهم[٦٦] .

ومن هذه الفقرات نُدرك أنَّ علاقات وطيدة قامت بين الدير السمعاني والدير الماروني.

وفي العهد البيزنطي كثر الجدل الديني وتحزب سكان الدولة إلى طوائف وشيعٌ كانت تغذيها شهوة التسلط وظلم الطبقة الحاكمة البيزنطية لسكان البلاد الوطنيين ،مما جعلهم ينتظرون أيَّ منقذٍ لهم من الطغيان .

وقد لَفَتَ نظري تحامل أسرة مؤلفي المنجد /قسم التراجم/ ــ على الحكم العربي ــ إذ قالوا « دير مار مارون ــ دير في وادي العاصي قرب قلعة المضيق ــ والأصح أن يقال قرب بلدة الرستن ــ بناه الرهبان تلاميذ مار مارون ، ازدهر في منتصف القرن العاشر . دُمِّرَ من جراء الغزوات وظلم السلطان ــ حكم الخلفاء المسلمين » . مع أنَّ المؤرخ الغربي الفرنسي غوستاف لوبون

---

٦٦ ــ تسريح الأبصار /ص٨٥+٨٦/.

Lebon/١٨٤١ ــ ١٩٣١ م/ وهو من فلاسفة علماء الإجتماع قال: «ماعرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب».

أما شخصية الراهب شفيع الطائفة المارونية فهو راهب قديس تنسك في القورشية / شمال سورية / ذاع صيت فضائله فأصبح منسكه مزاراً، اتصل به يوحنا فم الذهب /٣٤٧ ــ ٤٠٧ م/ في منفاه، كتب سيرته / تيودور تيوس / هو أبو الطائفة المارونية. ويحتفلون بعيده في ٩ شباط توفي نحو / ٤٠٠ م/(٦٧).

وعلى أثر خراب ديرهم في مدينة الرستن، كما بينا سابقاً، قام الرهبان الناجون من المذبحة بالهجرة إلى لبنان، وأول بطريرك لهم في القطر اللبناني الشقيق هو مار يوحنا الماروني. وأصبح للبطريرك نفوذ هائل في حياة الطائفة المارونية.

ومن الجدير بالذكر أنَّ بداية تشكل الطائفة المارونية، وظهور المذهب الماروني في وادي العاصي، كان في حدود عام / ٤٠٠ م/ وفي عهد مروان بن محمد آخر خليفة أموي /١٣٢ هـ/ نزح الموارنة إلى لبنان الشقيق واستوطنوه(٦٨).

---

٦٧ ــ المنجد / قسم التراجم / ص ٤٧١ /.

٦٨ ــ المنجد / قسم التراجم / ص ٥١٨ /.

وفي ختام موضوعنا عن / دير بلوّر / في غرب الرستن ، لا بد من إيراد الكتابة التذكارية اليونانية الموجودة على الساكف الذي ذكرنا أبعاده سابقاً. ونذكر أخيراً كثرة الأحجار على أطراف حقل أغراس الدراق ــ المنقوش عليها رسم /إشارة الصليب/ تذكر الزائر بما كان للدير في غابر الأيام من أهمية وعظمة في حياة أتباع القديس / مار مارون / .

ترجمة الكتابة الأثرية المسجلة على إحدى أسكافيات دير ملوًر في الرستن

1- Eicoeoc.
2- Kqloxpic.
3- Tocqytoy.
4- Kqloky.
5- Pickoivun.
6-Oibohoo.
7- Yntec.

[الله ومسيحه والسيد كونيل المساعدون].

وللمترجم: سيادة مطران حماة ألف شكر من المؤلف...

تاريخ الترجمة ١٠/٦/١٩٨٦م

الرستن في العهد العربي الإسلامي ٦٣٤ـ٩١٨م

نحن الآن في عهد الخليفة الثاني الفاروق عمر بن الخطاب / رضي الله عنه / والذي دام حكمه حوالي /١٠/ سنوات $\frac{١٣}{٢٣}$ هـ الموافق $\frac{٦٣٤}{٦٤٤}$ م وقائده أبو عبيدة بن الجراح. عندما شاهد الرستن مع قادته وجنده، نتخيله وقد وقف مشدوهاً بإزاء قلعتها الحصينة ذات الأبراج الدفاعية، والوديان السحيقة التي تحيط بها، كما مر معنا في الصفحات السابقة، ومن الجنوب والغرب سوادها العظيم الخصب وأكثر الناس يشتغل بالزراعة، فكيف العمل إلى فتح هذه البلدة الشامخة السهلة الممتنعة ؟؟..

هذا ومن المعروف في دنيا الفن العسكري، أنَّ القائد الناجح هو الذي يكسب النصر، بأقل الخسائر البشرية. وخلاف الماريشال الألماني رومل مع سيده هتلر في أواخر الحرب العالمية الثانية، وإبان

الإنزال الأمريكي على ساحل النورمندي، كان سببه إصرار الأخير على المقاومة حتى آخر نقطة دم، لدى الجندي الألماني بينما رومل نظرته المقاومة حتى آخر طلقة في جعبته «من كتاب ـ الحرب بدون حقد ـ بقلم ابن روميل ـ منفريد ـ المجلة العسكرية السورية ـ العدد (٨٥) عام ١٩٥٣م بقلم المقدم: عبد الكريم زهر الدين» ...

وجُلُّ المؤرخين القدماء عللوا سقوط المواقع المحكمة التحصين بأسباب أشبه بالأساطير، نظراً لغرابتها من جهة، ولكونها لا تصمد أمام النقد الحديث. وعلى كلٍ فهناك قاعدة في التاريخ تفيد: أنَّ كل أسطورة وراءها قبس من الحقيقة مهما ضؤلت قيمتها، وتواصلها بين الشعوب. فهل وصل خبر حصان طروادة إلى مؤرخي العرب المسلمين، حتى عللوا فتح الرستن بحيلة حربية كحيلة الإغريق في فتح طروادة ؟؟ أم أنَّ دستورهم كان قول الرسول العربي محمداً ﷺ «الحرب خدعة».

إنَّ تحرير الرستنِ من السيطرة البيزنطية، بواسطة الصناديق الخشبية، وداخلها رجالٌ، هي من سبيل التشويق التاريخي والقصص الطريف، ويدل ذلك على أنْ المسلمين لاقوا صعوبة في الإستيلاء على هذا الحصن المنيع، وهذه هي رواية تحرير الرستن كما رواها أحد المصادر:

...وقف القائد المسلم للمرة الأولى وهو يعاين هذا الحصن المنيع المشحون بالعدد والرجال، فدعاهم إلى الدخول في طاعته، لكنهم أبوا، وعندما طلب منهم إيداع عشرين صندوقاً خشبياً في قلعتهم كأمانة وافقوا على ذلك، وكان بداخلها عشرين رجلاً من المسلمين وأعطاهم كلمة (السر) عند تمكنهم وغلبتهم على أهل القلعة. وتظاهر الجيش الإسلامي بالإنسحاب.

وكمن خالد بن الوليد في قرية قرب الرستن تدعى /السويدية/ وعندما جُنَّ الليلُ، احتفل أهل الرستن بالصلاة في كنيستهم شكراً على رحيل الجند الإسلامي عنهم، فشد المسلمون الذين خرجوا من الصناديق الخشبية وهجموا على حريم نقيطاس المسؤول عن حفظ القلعة.. وقالوا نريد مفاتيح المدينة، عندها رفعوا أصواتهم بالتكبير: «الله أكبر، الله أكبر» وفاجأوا القوم، عندما وصل خالد بن الوليد في اللحظة الحاسمة، ودخل الجند الإسلامي إلى الرستن، من الجهة الجنوبية /باب حمص/ هنا أذعن أهل المدينة للأمر الواقع ونزلوا على شروط القادة المسلمين المعروفة في جميع فتوحاتهم: الدخول في الإسلام، أو دفع الجزية، أو الحرب... ولما انتفى الشرط الثالث، هنا دفع الجزية الكثير والأكثر دخل في دين الإسلام، أما نقيطاس أمير البلدة فقد رفض الإذعان للحكم العربي والتحق بالروم، وعندما وَصَلَ

الخبر إلى أبي عبيدة بالفتح سَجَدَ لله شكراً ... وجعل على حراسة البلدة أَلْفَ رجلٍ من أهل اليمن، وجعل أميرها: / هلال بن مرة اليشكري /.
عندها رحل خالد بن الوليد مع عبد الله بن جعفر الطيّار وتوجهوا إلى حماة[٦٩].

وهكذا دخلت الرستن تحت الحكم العربي الإسلامي وكبقية بلاد الشام والأجزاء الأخرى من الوطن العربي، تقاطرت القبائل العربية القادمة من الجزيرة العربية إلى المناطق المحررة لتعريب البلاد، حيث استقرت القبائل القيسية في حماة، واليمنية في حمص... وهؤلاء الألف رجل من اليمن الذين أوصاهم أبو عبيدة بحفظ الرستن نَظُنُّ أنهم بقوا فيها كمواطنين، ومن المحتمل أيضاً أنَّ معظم الأبنية في الرستن تُرِكَتْ سالمة لم تمس، ويُظَنُّ أن كبار أغنياء الروم ظنوا أنَّ الفتح العربي لبلاد الشام، في أول وهلة لم يكن إلَّا غزوةً مثل غزوات الفرس للبلاد، وخاصة أن بلاد الشام لم يمضِ عليها أعوام قليلة بعد استرجاعها من الفرس على يد القيصر: هِرَقْل، ملك الروم، كما جاء في القرآن الكريم:
﴿الٓمٓ، غُلِبَتِ الرُّومُ، فِيٓ أَدنَى الأَرضِ وَهُم مِّن بَعدِ غَلَبِهِم سَيَغلِبُونَ *﴾ (الروم ١ ـــ ٣). مما حدا بالأثرياء الرومان لأن يخفوا أموالهم وكنوزهم في الرستن، كما ذكر ابن جبير في روايته الآنفة الذكر. وقد

٦٩ ـــ فتوح الشام / الواقدي / ص ٨٩ /.

انفرد هذا الرجل الورع بذكر تخريب الرستن على يد القوات العربية بناءاً على أمر الخليفة /عمر بن الخطاب/، وهذا يخالف الحقيقة والواقع، لأنَّ الجيوش الإسلامية في أول إنطلاقها للفتح، زُوِّدَتْ بتعليمات مشددة بعدم أذى السكان المسالمين، وعدم قطع الأشجار، وإليك ما يقوله الخليفة الأول أبو بكر الصديق/١١ ــ ٣٢ هـ/ لأسامة بن زيد قائد جيش الثأر لشهداء مؤتة في الأردن على يد الروم «لا تخونوا ولا تغدروا، ولا تفعلوا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً، وسوف تمرون بأقوامٍ قد فرغوا أنْفُسُهمْ. فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له. وسوف تقدمون على قوم يأتون بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً، اندفعوا باسم الله»[٧٠].

وهذا الدستور الذي تمثله قادة الجيوش الإسلامية جعل المؤرخين المحدثين يعترفون بحسن معاملة المسلمين لأهل البلاد المفتوحة، فالمؤرخ الإنكليزي برنارد لويس Bernard Lewis يقول: «حتى لقد فَضَّلَ سكان

---

٧٠ ــ تاريخ الإسلام السياسي /الدكتور: حسن إبراهيم حسن/ج١ ص٢١٣/ نقلاً عن الكامل في التاريخ /ج٢ ص١٣٩/.

سورية ومصر المسيحيين الحكم الإسلامي على الحكم البيزنطي»، وكتب يهودي عَرَّاف عن العصر الإسلامي الأول فجعل ملاكاً يقول للكاهن «لا تخف يابن يهوه، فالخالق تبارك اسمه لم يَقُمْ مملكة اسماعيل إلَّا ليخلصكم من هذا الشر /أي بيزنطة/».

ويمكننا أن نقارن بهذه الكلمات كلمات مؤرخ مسيحي سرياني من عصرٍ متأخرٍ، حيث يقول «ولهذا فقد خَلَّصنَا الإله المنتقم من قبضة الروم على يد العرب.. وليس النفع الذي جنينَاه من قسوة الروم وحقدهم المرير، بالقليل»[٧١].

ونرى في هذه الشهادة البلاء الذي كان يجثم على سكان البلاد من مختلف الأجناس وخاصة معاملة الروم لليهود.

ولقي اليهود، وهم ممن دخلوا في عهد الإسلام، من حُسْنِ صنيع المسلمين فوق مالقيه النصارى، على الرغم مما جاء في بعض الآيات القرآنية في التنديد بهم، وكان منهم في أزمنة عدد من الخلفاء غير واحدٍ تبوأ أسمى المناصب في الدولة، كما كان لهم في بغداد نفسها مستعمرة كبيرة، ظَلَّتْ مزدهرة إلى أنْ سقطت هذه المدينة في يد المغول، ويروي بنيامين التطيلي الذي زارها عام /١١٧٠ م/ أنَّهُ وَجَدَ بها

---

٧١ ـــ العرب في التاريخ / برناردلويس / ترجمة نبيه أمين فارس / ومحمود زايد / ص ٧٨/.

عشر مدارس للحاخاميين وثلاثة وعشرين كنيساً، أهمها كنيسٌ مزدان بضروب الرخام ومجمل بالدهب والفضة، وأفاض هذا الرحالة في وصف الإحترام الذي أصابه رئيس الحاخاميين من المسلمين الذين اعتبروه سليل النبي داوود ورئيس الملة اليهودية. وكان هذا الرئيس إذا خرج للمثول بين يدي الخليفة ارتدى الملابس الحريرية المطرزة وعمامة بيضاء تَشَّعُ بالجواهر وأحاط به رَهْطٌ من الفرسان، وسار أمامه ساعٍ يصيح بأعلى صوته:

افسحوا درباً لسيدنا ابن داوود[٧٢].

وبعد الفتح قُسِّمَتْ سورية إلى أجناد، /مناطق يقيم بها الجنود المسلمون/ أو مناطق عسكرية حسب الاصطلاح الحديث، ولاتها مسؤولون عن مد الخليفة بالجنود عند إعلان الجهاد.

«وبعد الفتح فُصِلَتْ قسرين عن حمص. ففي عهد يزيد بن معاوية، بقيت حمص تشمل كلاً من الرستن وحماة وسلمية وشيزر وآفاميا وحسر الشغور، وموانئ طرطوس وبانياس وجبلة واللاذقية، كما أصبحت الفرقلس والقريتين وتدمر»[٧٣].

٧٢ــ العرب: تاريخ موجز /فيليب حتي/ص١٣٧، ١٣٨/.
٧٣ــ ربوع محافظة حمص /الدكتور عماد الدين موصلي/ص١٤٠/

وبلغ عدد أجناد سورية أربعٌ هي : حمص ودمشق وفلسطين وشرق الأردن[٧٤] .

وقد صمتت المصادر التاريخية العربية عن إيراد أية أحداث شاركت الرستن في صنعها إبان العهد العربي الإسلامي ، حتى إنَّ دائرة المعارف الإسلامية التي يصدرها أئمة المستشرقين في العالم كتبت عن الرستن تحت مادة حمص ما يلي :

« وليست حمص ويطلق عليها اليونان والرومان Emesa انظر حول صيغتها المختلفة مادة Emesa » .

والمؤرخ بليني هو أول من ذكرها . من المدن التي أنشأها السلوقيون وكانت الرستن المجاورة لها مقر دولة عربية .

انظر :

Romisene-stautsuer Wultune-margurt.-جـ١ ص٤٥ [٧٥]

وقد شهدت الرستن في أوائل القرن الرابع الهجري ، /٣٣٣ هـ/ معركة جرت في سهولها قرب نهر العاصي والتي جرت بين حاكم مصر آنذاك : الأخشيد / محمد بن طغج / الذي كانت تتبعه بلاد الشام

٧٤ـــ موجز تاريخ حمص / ماجد موصلي / ص١٤٢ / .

٧٥ـــ دائرة المعارف الإسلامية / المجلد ٨ ص١٠٥ / .

وسيف الدولة الحمداني صاحب حلب، وكانت الدائرة على المصريين إذ غرق منهم في نهر العاصي أربعة آلاف وقتل منهم الكثيرون وكانت النتيجة أنْ دخل سيف الدولة الحمداني دمشق ظافراً، على أنَّه بعد سنتين عاد محمد بن طغج وكسر سيف الدولة في ثنيه العقاب وأُرجِعَ إلى حلب، (تاريخ الإسلام السياسي. الدكتور حسن إبراهيم حسن جـ٣ ص ١٢٠).

أما ياقوت الحموي الذي قام بوصف الرستن في عهده /١١٧٩ ـــ ١٢٢٩م/ وآثارها وأنها خربة قال «وقد نُسِبَ إليها أبو عيسى حمزة بن سليم العنبسي الرستن سمع عبد الرحمن بن جبير بن نفيد الحضرمي ونفراً من التابعين، روى عنه عمر بن الحارث[٧٦] وقبل عهد ياقوت الحموي بأقل من قرنٍ /٨٠ سنة/ هاجم الإفرنج الرستن بعد هجومهم على حمص .. في زمن تاج الملوك الذي عهد بعمالة حمص لأتابكة جناح الدولة سنة /٤٩٠ هـ/ ويدعى حسين، فجاء وحصَّنها وأحكم قلعتها. وفي عهده جاء الصليبيون بعد أنْ استولوا على انطاكية والمعرة؛ فصالحهم جناح الدولة على غرامة أدَّاها لهم، ودفع شَّرَهم. ولكنه بعد رسوخهم في الساحل ظَّل يناوئهم، وبينما كان يصلي في الجامع الكبير، اغتاله ثلاثة من الإسماعيلية، وفي هذه الأثناء عاد

٧٦ ـــ معجم البلدان /ص ٤٣/.

السلاجقة للسيطرة على حمص، وعينوا الأمير قراجا أحد مماليك الملك شاه حاكماً على حمص[٧٧].

وبعد رجوع الصليبيين وارتدادهم عن حمص حاصروا الرستن سنة /٤٩٦ هـ/ ولم يستطيعوا فتحها نظراً لمناعة أسوارها. وهناك رواية تقول: «أنَّ الصليبيين لم يرجعوا عن حمص إلَّا بعد استنجاد أهْلُها بملك دمشق شمس الدين دقاق وأتابكة طغتكين فجاءا ولما عرف الإفرنجُ بهما أحجموا ورحلوا»[٧٨].

وهذا يدل أنَّ الرستن في أوائل الحروب الصليبية كانت مأهولة بالسكان وخيراتها وفيرة ولأنَّها واقعة على خطٍ تجاري هام، كما كانت في العهد الروماني عندما كانت إحدى المدن التي تمر بها الطريق من قنسرين /خالكيس/ وحماة /أبيفانيا/ إلى مدينة حمص.

وفي زمن المماليك ازداد نفوذ القبائل العربية، وقد شهدت الرستن أعظم معركة بين المماليك، والمغول عندما هدَّدوا بلاد الشام وبرز من شيوخ القبائل العربية /شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة/ الذي أعطاه السلطان المظفر سلمية عام /٦٥٩ هـ/، فعندما

٧٧ــ موجز تاريخ حمص /ماجد الموصلي/ص٤٧/

٧٨ــ حولة أثرية /ص ٣٢٤/.

اصطف الجيشان: المملوكي والمغولي للقتال وقف الملك المنصور في الميمنة يساعده صاحب حماة، وفي رأس الميمنة عيسى المذكور /وفي رواية أخرى كان ترتيبه غير ذلك/ وفي الميسرة التركمان بجموعهم، وعسكر قلعة الأكراد والجاليش /مقدمة القلب/ وفيه المماليك، وكانت أرض المعركة ضمن البقعة الممتدة بين العاصي والرستن ومجمع المروج، وانهزم التتار حتى وصلوا إلى سد بحيرة قطينة في حمص. ومنها إنطلقوا شرقاً إلى سلمية والفرات، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وكانت الرستن زمن المماليك تابعة لآل الفضل. «ورسم بالأمر الشريف أنْ تُفوّض إليه التقدمة على العربان بالشام المحروسة وأنَّ منازله من الرستن إلى الملوحة والإلزام له بذلك»[٧٩].

وآل الفضل هؤلاء أبوهم ربيعة سليل قبيلة طيء الشهيرة في الجاهلية. وآلت رئاسة القبيلة إلى أولاده الأربعة بعد وفاته وهم: الفضل، ومُرا، وثابت، ودغفل ومنهم تفرعت بطون ربيعة المشهورين في التاريخ بأسماء /آل الفضل، وآل مرا، وآل مهنا، وآل عيسى، وآل أبو ريشة/. وقد اشتدت بين هذه البطون الحروب والمنازعات والغزوات طلباً للرئاسة والأمرة، كما كان الخلاف على أشَدّه بينهم وبين السلطات الحاكمة في العراق والشام، بسبب قطعهم لطريق المواصلات التجارية

٧٩ــ مجلة دراسات تاريخية /السنة ١٩٨١/العدد ٥/.

ونهبهم للقوافل ومواكب الحجاج ورسل البريد، وعدم إعترافهم وانقيادهم إلى السلطة الحاكمة في كلا البلدين.

هذا وقد انقسم آل الفضل إلى عدة أفخاذ أشهرها فخذ عيسى المشهور. وقد كانت لعيسى المذكور منزلة عظيمة عند الملك الظاهر، ثم تضاعفت عند الملك المنصور قلاوون وسماه / ملك العرب / وزاد في إقطاعه لحسن سيرته، ولأَنَّهُ في وقعة الملك المنصور مع التتار بحمص سنة / ٦٨٠ هـ / جاء وقت الموقعة بعرب قبيلته من سلمية واعترض التتار من خلفهم، فَتَّمَتْ الهزيمة على التتار، ولعل عيسى هذا هو الذي قال عنه الكاتب جلبي المتوفي سنة /١٠٦٨ هـ / جغرافيته / جهارنما / أنه كانَ في المعركة حاملاً ريشة على رأسه فلُقَّبَ بـ /أبو ريشة/ وأنه هو الذي نال من الملك المنصور قلاوون عطاءاً عظيماً، فاشترى عبيداً ومماليك أُعْتِقوا بعد حين.

ثم فصَّلَ المؤرخون الخراب والدمار اللذين أتى بهما أولاده، مهنا بن عيسى وأعقابهم في القرن الثامن عشر، مما أدى لخراب سلمية وأعمال حماة والمعرة وحلب[٨٠].

وفي بلدة الرستن لا تزال بعض العشائر البدوية تنزل في القرى

٨٠ـــ مجلة التراث الشعبي /الجمهورية العراقية/العدد ٩/سنة ١٩٧٩/.

التابعة لها، ومن هذه العشائر: كالأبي بكير، والأبي هرموش ومنهم كالأبي سرايا ينزل في الداسنية غربي العاصي[٨١].

ويلاحظ أنَّ الرستن في أواخر العهد المملوكي، كان الخراب يَعُمّها كما قدمنا، نظراً لحظر البدو وزوال الأمن في معظم الأحيان.

هذا وقد أنشئ زمن المماليك نظام للبريد وكان مركزه حمص، يستخدم لنقل المراسلات مع الرستن وحماة ودمشق عن طريق قارة...

٨١ــ قبائل الشام وعشائرها /وصفي زكريا/ص٢٥٦/.

الرستن في العهد العثماني
/١٥١٦ـــ١٩١٨/ م

دخلت البلاد العربية تحت الحكم العثماني على أثر ضعف المماليك في مصر، ونشوء منافس قوي لهم في الشرق هم: الصفويون في فارس، وكانت بلاد الشام أول بلدٍ خَضَعَ للحكم العثماني على أثر معركة مرج دابق قرب حلب /٢٤ رجب ٩٢٢ هـ/٢٣ آب ١٥١٦ م/ وهُزِمَ المماليك نتيجة المعركة وتوفي سلطانهم / قانصوه الغوري /. والفضل في انتصار العثمانيين يعود إلى استخدامهم للأسلحة النارية التي أبى المماليك استخدامها، بل فضلوا الاعتماد على الأسلحة التقليدية، التي تدربوا عليها في سهول القبجاق قبل أنْ ينتقلوا إلى مصر، ثم دخلت مصر تحت الحكم العثماني عام /١٥١٧ م/، وقد خضع أمراء جبل لبنان عندما مثلوا بين يديّ السلطان سليم الأول تاسع سلاطين بني عثمان /١٥١٢ــ ١٥٢٠ م/. وقد جرى الحوار التالي بين السلطان العثماني

وأحد الأمراء الشراكسة المماليك الأسرى، بعد معركة الريدانية /عند مشارف القاهرة في ٢٩ ذي الحجة ٩٢٢هـ/ ٢٣ كانـون الثـاني ١٥١٧م/ قال كرتباي: «لو بُلِي واحدٌ منا بعسكرك لأفناه وحده، وإذا لم تُصَّدِقْ جَرِّبْ أمر عسكرك أنْ يترك ضرب البندق فقط» وقال أيضاً «أنْتَ أتيت لك عساكر من أطراف الدنيا، من نصارى ومن روم وغيرهما. وجئْتَ بهذه الحيلة التي تَحَّيلتْ بها الإفرنج لما أنْ عجزوا عن ملاقاة عساكر الإسلام، وهي هذه البندقية التي لو رَمتْ بها امرأة لَقَتَلَتْ بها كذا كذا إنساناً، ونحن لو اخترنا الرمي بها ما سبقتنا إليه ولكن نحن قوم لا نترك سُنَّةُ نبينا محمد ﷺ وهو الجهاد في سبيل الله بالسيف»[٨٢]..

وهذا يدل على اعتداد الفارس المملوكي بالأسلحة التقليدية وكرهه للبندقية. وكان الأمر على عكس ذلك في الدولة العثمانية التي أجاد جيشها الإنكشاري استخدام الأسلحة النارية، فَبَلَغَتْ بها القوة، وهذا ما مكنها من الفوز في معارك جالديران /١٥١٤م/ ضد الصفويين ودابق والريدانية ضد المماليك...

٨٢ـــ بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت /الدكتور: عبد الكريم رافق/ص ٢٢/.

تخريب جسر الرستن

ولما رَحَلَ السلطان سليم الأول إلى الآستانة وخَلَا الجو / لجان بردى الغزالي / والي الشام، أثناء حكم المماليك وهو الذي بعد فتحهم لبلاد الشام، أقول حَدَّثته نفسه بالخروج على طاعة العثمانيين، وصَعُبَ على طبعه إلَّا أنْ يَخون سيده الجديد، كما خان سيده القديم / قانصوه الغوري / وعلى أمثاله ينطبق قول الشاعر:

ومن يَتَعَوَّد عادة ينجذب لها
على الكره منه والعوائد أملك

فدعا لنفسه بالسلطنة بعد أنْ فاوض أمراء جبل لبنان والعربان والمماليك ولَقَّبَ نفسه بالملك الأشرف، ولما بلغ قراجه باشا والي حلب موت السلطان سليم وذلك سنة /١٥١٩م/ في المنجد /١٥٢٠م/ حَصَّنَ حَلَبَ وخرج إلى قرية سرمين وقرية وارينج ونهبهما. فخرج إليه أمير شيزر وكان موالياً للغزالي، فهزمه وأخذ جميع ما كسب. وتقدم الغزالي لحصار حلب، لكنه اضْطَر للتراجع عنها إذا أَتَتْها الإمدادات بقيادة فرهاد باشا، فتوجه الغزالي نحو دمشق ماراً بحماة. وعندما وصل

الرستن أمر بتخريب قناطر الجسر على العاصي، ولكن عند قرية / الدوير / اشتبك الطَرَفَان بمعركةٍ حاسمة انتهت بهزيمة الغزالي[٨٣] .

وقد دام حكم الغزالي لبلاد الشام منذ وداعه للسلطان سليم في حمص /٢٢ صفر ٩٢٤ هـ/ ٥ آذار ١٥١٨ م/ حتى حصار العثمانيين لدمشق وقتله /٢٦ صفر ٩٢٧ هـ/ ٥ شباط ١٩٢١ م/ ثلاث سنوات .

ويقال أنَّ الجسر في الرستن أصلحه سنان باشا، وهو يمتد من الشرق إلى الغرب سطحه مستو /١٤٠ م/ وعرضه خمسة أمتار ونصف . وعدد قناطره اثنا عشر قنطرة، وكان هذا الجسر الرشيق خالٍ من الكتابة التأسيسية . عريق في القدم . وقد احتاج الجسر إلى ترميم آخر ؛ فقام به والي الشام في أوائل القرن التاسع عشر كما جاء في الكتابة التذكارية على باب جامع أبا يزيد البسطامي، القائم في الرستن وذلك عام /١٢١١ هـ/ .

وعبد الله باشا العظم الذي قام بالترميم، هو أحد أفراد الأسرة التي هيمنت على الحكم وعلى مقدرات بلاد الشام... أثناء الحكم العثماني، منذ بدء القرن الثامن عشر وحتى أوائل القرن التاسع عشر .

٨٣ـــ تاريخ شيزر / الدكتور : عزيز رزوق / ص ٢١٤/ .

وأصل آل العظم فلاحون من معرة النعمان . وبالنسبة للجسر فقد أزيل بتمامه عند بناء السد عام /١٩٥٨م/ .

خان الرستن

وهو أحد الأبنية التي شُيِدَت في العهد العثماني كمحطة للحجاج بين مكة واستانبول :

« وثمة في منخفض العاصي ، خانٌ قديمٌ ، بني من الحجر طوله /٩٨ م/ وعرضه /٤٦ م/ وكان من أملاك الدولة ، تأوي إليه القوافل عند الحاجة ، ولكن في سنة /١٣٤٩ هـ / لما أرادوا بناء مخفر لجنود الدرك (عهد الإحتلال الفرنسي) احتاجوا للأحجار ، شرعوا يخربون الخان ويستعملون أحجاره ، ولما انتهوا من جداره ورواقه الشرقيين مر بعض محبي الآثار واعترض ، فوقفوا دون الإجهاز على بقيته ، وليس على باب الخان كتابة تأسيسية وقيل أنها رُفِعت أثناء الحرب العامة .. وأنَّ باني هذا الخان هو /سنان باشا/ الوزير العثماني الشهير »(٨٤) .

وحول الإجهاز على تخريب الآثار القديمة ، كالخان قبل بناء السد : قصة أبي يعلى ، عبد الباقي بن أبي حصن المعري حسبما ورد في تاريخ ابن المهذب ، حين اجتاز مدينة سيَّاث القريبة من معرة النعمان .

٨٤ــ جولة أثرية /ص ٣٠٤/ .

ورأى أناساً ينقضون مبانيها الأثرية ، ليعمروا بها مواضع أخرى ، فراعه الأمر وقال :

١ ـ مررتُ برسم في سياث فراعني
به زجل الأحجار تحت المعاول

٢ ـ تناولها عبل الذراع كأنما
رمى الدهرُ فيما بينهم حربُ وائل

٣ ـ اتتلفها شُلَّتْ يمينك خلّها
لمعتبر أو زائر أو مُسائل

٤ ـ منازل قوم حدثتنا حدثهم
ولم أر أحلى من حديث المنازل

« مجلة المتحف العربي ، الكويت ، العدد الأول تموز ١٩٨٥ »

هذا وأخبرني أكثر من مواطن أنه كان هناك على الجانب الأيمن من الباب الرئيسي الشمالي جملة منقوشة على أحد أحجار البناء هي « يا لكز حمدو وعسكرو » وكان يتوسط الخان جامع صغير مثمن الأضلاع فيه منبر !!

وقد قُمْتُ بالبحث عن باني هذا الخان ، حيث لم أطمئن إلى أنَّ سنان باشا هو بانيه إلى أنْ عَثَرْتُ على نص ٍ ورد فيه ذكر الخان والباني الحقيقي : وسأوردُ النص بحرفيته لما فيه من الطرافة في ذلك العصر

للإطلاع على التقاليد في السفر ووسائل الترفيه، فقد جاء في رحلة الخيّاري «إبراهيم بن عبد الرحمن بن علي بن موسى بن خضر الخيَّاري» والمسماة «تحفة الأدباء وسلوة الغرباء» دامت رحلة المومأ إليه عشرين شهراً، حيث انطلق من المدينة المنورة إلى الآستانة لعرض ظُلَامَتَهُ، حيث عُزِل من وظيفته. وقد ولد المؤلف عام /١٠٣٨ هـ/ وتوفي عام /١٠٨٣ هـ/ وزار أثناء الرحلة مدن دمشق وبيت المقدس.

جاء في الرحلة «وأقمنا بها / حمص / إلى أنْ كاد يَخْبُ المغربُ وبعد سيرٍ يسيرٍ صلينا، ثم سرنا وبينما نحن سائرين سمعنا صوت النوبة السلطانية / ويُقْصَدُ بها الجوقة الموسيقية / الواصلة لملاقاتنا معشر الركب مع أمير حماة / هرموش / فإنه وصل هو وعسكره والنوبة تَضْرِبُ بين يديه ضرباً لحسن الإيقاع أذهب الكسل وأطْرَبَ الأسماع؛ فسرنا بعد ملاقاته. وسار أمامنا بعد مواجهة / سقاباش / السلطاني، وسارا منبسطين تضرب النوبة بين أيديهم والناس قد هزهم الطربُ، فمررنا بالطريق بمزارٍ على يمين السائر، يقال أنه قبر أبي يزيد فزرناه، ثم سرنا غير بعيدٍ فوصلنا إلى النهر المسمى بالعاصي، فإذا هو من أعظم الأنهار، يسمع له دوي وصوت عالٍ / ناتج عن اصطدام المياه بالصخور وسط النهر على ما يبدو / مررنا على كُبْرِيَ / جسر / عظيم يسمع للمارين عليه جَلَبَةُ أصواتٍ، ثم بعد مجاوزته نَزَلَ الأمير المذكور

وسقاباش، ونزل الناس على يسار الكُبْري /الجسر/ وأقاموا به ساعة طويلة بحيثُ استراح الركاب والدواب، ثم ضُرِبَتْ النوبة السلطانيـة /إيذاناً بالرحيل/ وسار الأميران وسار الناس إلى أنْ طَلَعَ الفَجْـرُ، ساعة تضرب النوبة وساعة يمسكون عن ذلك، ثم سرنا إلى أنْ أسفر النهار، فوصلنا حماة يوم الجمعة صباحاً فرأيناها عامرة ...الخ.»

وقد قام عالم الآثار العربي السوري السيد عبد القادر الريحاوي بالتعليق على النص المنتزع من الرحلة بعد أنْ قام بتحقيق المخطوط فقال: يقصد بالجسر جسر الرستن الواقع بين حمص وحماة وكان بها خانٌ لم يذكره الخياري، بينما ذكره الرحالة التركي: أوليا جلبي الذي مرَّ قبله بسنواتٍ، عام /١٠٥٨هـ/ وقد أطلعني مؤخراً السيد الأستاذ عبد الودود برغوت على مخطوطٍ من مكتبة أبو السعود الحسيني من دمشق، يتضمن رحلة نجم الدين الغزي الدمشقي عام /١٠٣١هـ/ من دمشق إلى استانبول ويقول فيه عن خان الرستن:

«وَقَدْ عَمَرَّهُ الأميرُ فَيَّاضُ أمير بني صار وهو خانٌ جَديدٌ كأنما فرغ منه المعمار».

وهذا يؤكد أنَّ الخانَ بُنِي في حوالي /١٠٣٠هـ/. وليس من

بناء سنان باشا والي دمشق كما يقول وصفي زكّريا في كتابه: «جولة أثرية». ذلك أنَّ سنان باشا توفي في سنة /١٠٠٤ هـ/[٨٥].

وعلى مقربةٍ من مركز البريد في الرستن ترتفع مئذنة سامقة، أحجارها بيضاء مشذبة بإتقان بديع، هي من أحجار الخان بعد إزالته عند الشروع في بناء السد. حَفَظَها وجَمَعَها أحد سكان البلدة في السنوات الأخيرة. والذي قام ببناء جامع سمي باسمه / جامع أبو عَمُّو /.

مسجد أبي يزيد البسطامي

وفي الرستن مقام الولي الشهير الصوفي: أبا يزيد البسطامي الفارسي الأصل، الذي ولد في بلدة بسطام من أعمال فارس (راجع الملحق) وقد زار الرحالة التركي: أولبا جلبي مقام هذا الصوفي /١٠٥٨ هـ/ فكتب عنه ما يلي:

«وبعدما انتهينا من حماة أرسل الباشا الأطواغ إلى الأمام، ثم لحقتها القافلة في اليوم نفسه، ومازلنا نسير في سهولٍ فسيحة، حتى نزلنا على جسر الرستن وهو جسرٌ عظيمٌ، مُبنى على نهر العاصي، قربه

٨٥ـ الحوليات الأثرية السورية /المجلد /١٥/ ج ٢ تحت رقم / ٣٦٢/٠٥ /

هضبة مرتفعة شيدت فوقها قرية كبيرة ، تسمى الرستن قِيلَ أنَّ جامعها فيه ضريح الولي الشهير /أبي يزيد البسطامي/ يزوره أكثر أهل البلاد من العرب والتركان ، ويتبركون به. والضريح تحت قبه عالية وفي جوار جامعها تكية يأوي إليها مئةٌ من الدراويش والفقراء وأبناء السبيل. يُطْعَمون ويُكْرَمون ، وفي الرستن جاء من دمشق إلى لقاء مولانا الباشا /كَتْخُذا : كلمة فارسية معناها السيد تحولت إلى كلمة كيخيا بالتركية ومعناها القَيِّمْ/ (راجع المنجد ص ٤٣٤) شوَّاش دمشق. وأمين شواشيها ، وآغا الإنكشارية ، وغيرهم من موظفي الديوان ، فَمَثَلوا بين يديه /أمين الشواش والآغا/ وقَدَّموا له هدايا متنوعة وانضموا إلى قافلته[٨٦].

تلك فقرات من رحلة أولبا جلبي التركي المشهور ، الذي رافق الوزير مرتضي باشا والي الشام سنة /١٠٥٨ هـ/.

وجامع أبا يزيد البسطامي ، أثناء مرور الرحالة المذكور كان يقع في طرف البلدة من الغرب وفي جنوبه عددٌ كبيرٌ من المقابر ، أمَّا الآن /١٩٨٨ م/ بعد القفزة النوعية في كثافة البناء الحديث ، فقد أصبح الجامع في وسط البلدة التي تحيط به إحاطة السوار بالمعصم.

٨٦ــ جولة أثرية /ص٢٣/.



الرستن القديمة وجامع أبا يزيد

أوصاف الجامع في سطور

ــ يقوم البناء حالياً على خمسة دعامات.

ــ عرض الدعامة من الأسفل /١٠٠ سم/.

ــ طول الدعامة من الأسفل /١٥٠ سم/.

ــ ارتفاع الدعامة من أرض الحرم قبل الإنحناء الدائري /١٩٠ سم/.

ــ قامت دائرة الأوقاف في الرستن بإحداث بابٍ في الجدار القبلي لتسهيل دخول وخروج المصلين.

ــ ويدخل النور إلى الجامع من خلال أربعة نوافذٍ في الجدار الجنوبي ونافذتين من جهة الغرب.

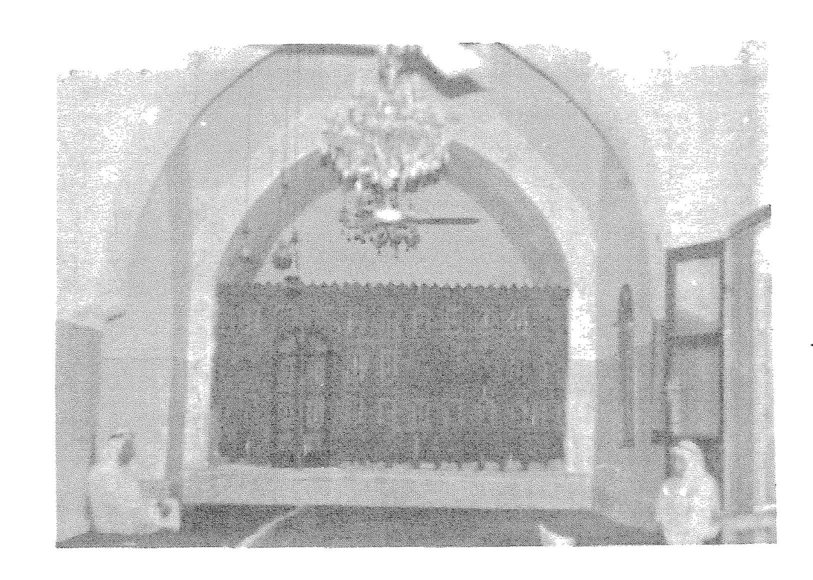
ــ في الجدار الشمالي للجامع بابان، وفوق افريز الجدار توجد نافذتان صغيرتان للإضاءَ والتهوية أيضاً.

ــ للجامع ميضأة حديثة في الجهة الشمالية الشرقية ضمن غرفةٍ مسقوفة في صحن الجامع وبها عدد من الحنفيات للوضوء.

ــ وفي الجهة الشمالية الغربية بجانب بدن المئذنة، توجد غرفة بسيطة لقيم الجامع.

ــ في حرم الجامع وفي الجهة الشرقية، يوجد غرفة الحضرة الخاصة بالمتصوف الزاهد /أبا يزيد البسطامي/.

ــ يفصل حرم الجامع عن الحضرة حاجزٌ خشبي بسيط، أقامه



الحضرة اليزيدية

على ما قيل لي أحد الأتراك . وله زخارف على غاية من البساطة . (كما هو واضحٌ في الصورة) .

ــ طول غرفة الحضرة /٤ م/ .

ــ عرض غرفة الحضرة /٣ م/ .

ــ ارتفاع أرضية الحضرة عن أرض الحرم /٥٠ سم/ .

ــ ارتفاع سقف الحضرة /٥ م/ .

ــ توجد بالحضرة راية نوبة للطرق الصوفية ، وفوق الراية أربعة كساءات لونها مائلٌ للإخضرار .

ــ خشب المقام قديم ولا توجد عليه كتابة تأريخية ، أو زخارف أو زينات .

ــ أقامت الأوقاف سُوراً إستنادياً يحيط بالجامع من الناحية القبلية ، وممراً يصلُ بين باب السور وباب الجامع الجنوبي ، وسط حديقة غَنَّاءَ .

ــ قديماً كان محراب الجامع قائماً قرب الحضرة اليزيدية . ثم نُقَلَ إلى مكانه الحالي وذلك بعد تجديد الجامع وتوسيعه .

ــ أخيراً إنَّ مساحة حرم جامع أبي يزيد البسطامي /٢٠×١٣ م/ .

ــ لايزال في الجامع قنديل أثري ذو صبغة حمراء ، من الزجاج التركي الجميل وهو غاية في الروعة .

ـــ وهناك فوق باب جامع أبي يزيد البسطامي توجد كتابة شعرية من سبعة أبيات نافرة، مفادها: أنَّ عبد الله باشا العظم، جدَّد بناء الجامع ورمَّمَ الجسر والأبيات المذكورة هي:

ـــ بالفتح والنصر ماثلاً بسمه
وبالهنى والمنى لاحت بشارات
ـــ منها الطريق الذي عَزَّتْ مسالكهُ
والجسر فيه للشادي عباراتُ
ـــ وهذه بقعة النور التي سَجَدَتْ
لله شكراً بها نعم البشارات
ـــ كان المسمى طيفورٌ وشهرته
أبا يزيدٍ وبالفأل الزيادات
ـــ فَألْهَمَ الله عبد الله والينا
صدر الوزارة وألفه الوزارات
ـــ أقامها وبناها والطريق غَدَا
مُسَهَّلاً وله في ذاك عاداتُ
ـــ مواسمٌ هي بالتوفيق صادرة
وعدٌ من الله والتاريخ خيراتُ

/ وتاريخ الكتابة ١٢١١ هـ /

أما التكية التي ذكرها أولبا جلبي فقد دُثِرَتْ شأن التكايا والربط التي أوقفها السلف الصالح.
ــ يوحي منظر الجامع بالهيبة والجلال وعبق القديم.

ومن الجدير بالذكر أنَّ لهذا الوالي: أبا يزيد ضريحان آخران في سورية: الأول في قرية آلاي بكلي، يزوره الأهلون، وكان المسجد الذي يَضُمُّ الضريح، قد أشرف على الدثور، فرممه سنة /١٣١٨هـ/ صاحبُ خيرٍ من سراة تركمان العمق. والثاني في إحدى قرى دمشق[٨٧].

الرستن مخبأٌ للأتراك العثمانيين

وعندما أراد والي مصر، محمد علي باشا بناء إمبراطورية عربية، وحارب الدولة العثمانية وكان قد جعل قيادة الجيش المصري لإبنه إبراهيم باشا، وكان السبب المباشر للحرب هو: عدم إرجاع الفلاحين المصريين الهاربين من مصر خوفاً من الجندية، حيث كانوا يستقرون في ولاية صيدا التي أبى واليها / عبد الله باشا / أن يُسَلِّمَ هؤلاء الفلاحين إلى والي مصر، باعتبارهم رعايا عثمانيين، فاستشاط محمد علي باشا غضباً

٨٧ــ جولة أثرية /ص٦٩/.

وأَقْسَمَ أنَّه سيرد هؤلاء الستة آلاف فَلَّاح ويُزِيدَهُمْ واحداً هو عبد الله باشا والي صيدا.

وكَلَّفَ إبنه بفتح الشام وتقدم عن طريقين البر والبحر، واستولى على عكا التي استَعْصَتْ على نابليون بونابرت، وترك سقوطها بيد المصريين دوياً هائلاً وعظيماً آنذاك، وكسر عدة جيوش عثمانية، وكاد محمد علي باشا يطيح بعرش آل عثمان لولا تدخل الدول الأوروبية وعلى رأسها إنكلترا.

ومن أهم المعارك التي جَرَتَ في بلاد الشام بين المصريين والعثمانيين هي معركة حمص التي حدثت يوم /٨ تموز عام ١٨٣٢م/ ودامت /أربع ساعات/، إد بدأت وقت العصر، وانتهت عندما أرخى الليل سدوله، وبادر إبراهيم باشا على أثرها إلى إخبار والده في القاهرة بالنصر المبين، وبَلَغَتْ خسائر الجيش العثماني في واقعة حمص ألفان من القتلى وألفان وخمسمائة من الأسرى.. واستولى الجيش المصري على عشرين من مدافعهِ وعلى ذخائر وأمتعة وأما خسائر المصريين فلم تزد على مائة واثنان من القتلى، ومائة واثنان وستون من الجرحى، ودخل المصريون في اليوم التالي مدينة حمص[٨٨].

٨٨ــ عصر محمد علي باشا /تآليف الاستاذ: عبد الرحمن الرافعي/ص ٢٦٤/.

ومن الجدير ذِكْرُهُ أنَّ الجنود العثمانيين، أثناء ملاحقة الجيش المصري لهم، قد اختبأ بعضهم بين المقابر في الرستن، فقد جاء في كتاب خطط الشام للمرحوم محمد كرد علي إبَّان بسطه لهذه الحرب فقال:

«وقـــد وصف الشيـــخ أمين الجنـــدي الحمصي /١٧٥٦ــ ١٨٤٠م/ فعال الأتراك وهَنَّأ عزيز مصر وولده إبراهيم وحفيده عباس بفتح الشام فقال من قصيدةٍ:

ـــوالله غَيَّـــر ما بهم من نعمـــةٍ
لما تغيَّـــــرَ حالهم وتبـــــدلا

ـــوقد استباحوا المنكرات فلا تسل
عمَّـــا تَوَّقـــع منهم وتحصَّلا

وقال أيضاً:

ـــوأتى بهم للرستـــن المشهـــور
إذ بين المقابـر قد تستـر واختـلا

ـــحيث الجهاديون حَلَّ وزيرهـم
في باب حمص وقد أبى أن يدخلا

إلى آخر القصيدة الموجودة في الكتاب[٨٩]

٨٩ــ خطط الشام / ج٢ ص٥٥/.

وهذا دليل أكيدٌ على عظمة الأوابد التي كانت في البلدة زمن تلك الأحداث. وقد بقيت سورية في حوزة إبراهيم باشا ومنها حمص وتوابعها، نشر بها كما نشر في غيرها من مدن الشام وأرباضها، العدل والنظام، ووطَّدَ الأمن، وقد عُمِرَتْ في تلك الفترة الوجيزة من الحكم المصري في سورية، بعض القرى الشرقية، كالمشرفة، وشمسين، وشنشار، والزعفرانة.

ويتفق الرواة من أبناء البلدة المعمرين، أنَّ أقدم سكان الرستن المعاصرين. هما أسرتا / قره مان / و/ آل جلعوط / فالأسرة الأولى لا يزال أحفادها في البلدة إلى اليوم، أما الأسرة الثانية / آل جلعوط / فقد هجروها لأسباب خاصة بهم....

وكان يقطن على أطراف البلدة في عهد هاتين الأسرتين / عرب العقيدات / يطلق عليها أبو هرموش، وأبو بكير، وبنو سلامة سبق ذكرهم آنفاً...

الرستن والبدو

إذا كانت الدولتان: المملوكية في مصر والمغولية في العراق، قد تعاهدتا على لَجْم جماح القبائل البدوية، التي كانت حياتها تقوم على

السلب والنهب، وقطع الطرق التجارية، فكيف بسكان الأرياف أهل الزرع والقليلي العدد والبسيطي التسليح؟.

إنَّ الدولة العثمانية، كانت تأمن من شر البدو وعدم قطعهم لطريق الحج إلى ولاة الشام، وخاصة آل العظم منهم. وبعد حروب محمد علي باشا وحصره في مصر، قرر السلطان العثماني /عبد العزيز/ عام /١٨٦٦م/ اعتبار حماة متصرفية وحمص مركز حكومة اللواء، ثم اعتبرت حمص بعد عام واحدٍ قائمقامية تابعة لحماة... وذلك لأسباب أمنية، تتعلق بكثرة غارات البدو على حماة وعلى ريفها، إذ أصبح يستحيل على الإنسان، أنْ يأمن على حياته فيما بين الرستن وحماة. كان البدو آنذاك يطالبون ريف حمص بالخوَّة مقابل عدم غزوهم وعيثهم[٩٠].

وقد أقطع السلطان العثماني عبد الحميد عام /١٨٧٧م/ أراضٍ في ريف حمص الشرقي لبعض القبائل المسلحة من الشراكسة والمتمرسة على القتال، والتي هاجرت من موطنها الأصلي: القوقاز بعد فشل ثورتها أمام القوات القيصرية المسلحة ودُعِيَتْ هذه الأراضي باسم /جفتلك/ أراضي السلطان. وتوطنت هذه القبائل في قرى: عسيلة،

٩٠ــ ربوع محافظة حمص /الدكتور: عماد الدين موصلي/ص١٤٩/.

دير فول، تل عمري، عين النسر، إضافة إلى قريةٍ تقع غرب مجرى العاصي على طريق الحولة، هي /تليل/ ويظن أنها كانت قديماً مقر معسكر ملك الروم /هرقل/، وأصبحت هذه القرى الشركسية تشكل خطاً دفاعياً قوياً أمام غزوات بدو القبائل المسلحين.

استثمارات حمص في الرستن

على مجرى العاصي الغربي في الرستن، أقيمت طاحونة جَبَّارة لطحن الحبوب، وتدار بقوة إندفاع الماء، وفي الجنوب الغربي منها، كانَ الخانُ كالحارس الأمين.. وتَعودُ ملكية هذه الطاحونة إلى /آل الرهراوي/ من أهالي حمص، وهذه الأسرة غنيةٌ عن التعريف بسبب عميدها الذي عَلَّقهُ الأتراك الطورانيون على أعواد المشانق في عام /١٩١٦م/ عندما نكثوا عهودهم لأعضاء مؤتمر باريس، الذين طالبوا بحكم اللامركزية للولايات العربية تحت الحكم العثماني وكانت الطاحونة قد بنيت على الطراز الروماني وتشبه في هيكلها طاحونة البنجكية في القصير.

وفي جنوب البلدة أيضاً وعلى مسافة قريبة من الخان الذي بَنَاهُ: الأمير فَيَّاض أمير بني صار، قام آل الدروبي وهم عائلة معروفة في حمص، ببناء حمامٍ يقدم خدماته الصحية لأبناء البلدة، ويستخدم

الوقود / كالحطب والتبن في تسخين المياه / ولكنه فشل اقتصادياً ، فأهمل وأسرع إليه الدمار ...

ومن الجدير ذكره أن الطاحونة قد هُدِمَتْ وأزيلت عند بناء السد عام /١٩٥٨ م/ .

الرستن بين مجيء فيصل وإنسحاب الأتراك

عندما انهزم الأتراك في الحرب العالمية الأولى /١٩١٤ ـ ١٩١٨ م/ .. حَدَثَ فراغ أمني في سورية ، بين انسحاب الأتراك من سورية ، ومجيء فيصل بن الحسين ، وتأسيس الحكومة العربية الأولى ورفع العلم العربي لأول مرة منذ أربعة قرون /١٥١٦ ـ ١٩٢٠ م/ على مدينة دمشق عاصمة الأمويين .

وهذا الفراغ جعل القرى فريسة لأطماع البدو القاطنين على حدود سيف الأراضي المزروعة ، فقام هؤلاء بغارات وغزوا القرى وفرضوا الأتاوة عليها ، فقام الأهالي في البلدة لدرء الخطر الداهم عليهم ، أثناء غياب السلطة الحقيقية ، بتشكيل مجلس دفاعي من وحهاء البلدة ، مهمته المحافظة على ممتلكات الأهالي ، ولا يشبه هذا المجلس الدفاعي : حكومة الرقة التي شكلها أمير قبائل عنزة : حاجم بن مهيد /١٠ آب

الجسر والخان والطاحون

عام ۱۹۲۰ م/ وكان مستشاروه : وهبي العجيلي / قريب الدكتور عبد السلام العجيلي المعروف لدى القراء/ وأحمد الحاج عبد الله ، وإبراهيم ملحم ، ودامت هذه الدولة حتى /۱۷ كانون الأول ۱۹۲۱ م/؛ أي خمسة عشر شهراً ، وتَغَلَّبَ الفرنسيون في النهاية على جيشها المؤلف من خمسة آلاف خَيَّال ... (أحاديث العشيات ـــ للدكتور عبد السلام العجيلي ، ص ٥٩ الطبعة الثانية) .

وقام المجلس الدفاعي في الرستن بجمع الأموال من الأغنياء ، واقتناء السلاح ، والمناوبة في حراسة البلدة ، والمحافظة على أرواح وممتلكات الأهالي ، ضد أعراب البادية ، فأصبح هؤلاء يخشون الإقتراب من الرستن ، وللذكرى والتاريخ : لقد توفي آخر مُعمَّر ممن ساهم في أعمال المجلس الدفاعي : /من آل فرزات/ وذلك / في الشهر الأول من عام ۱۹۸۸/ عن عمر يناهز الثمانين عاماً .

ومن الملاحظ أنَّ معظم القرى في المنطقة الوسطى من الجمهورية العربية السورية ، أثناء العهد العثماني /۱۹۱٦ ـــ ۱۹۱۸ م/ وَقَعَتْ فريسة النظام الإقطاعي البغيض ، وخاصة قرى حماة القريبة من الرستن ، على الشاطئ الثاني لنهر العاصي ، أمثال قرى : تومين جرجيسة ، حرب نفسه ..الخ . أما الرستن فقد كانت الأرضُ مشاعاً ،

ثم قُسِمَتْ بين الأهالي وورعت بعد ذلك؛ فأبناء البلدة لم يذوقوا ذل النفس البشرية تحت رحمة النظام الإقطاعي.

وقد استفاد أحَدُ السياسيين في سورية، من أخطبوط النظام الإقطاعي. فعقد للفلاحين مؤتمراً في حلب معادٍ للإقطاعية، استمر ثلاثة أيام، في منتصف أيلول /١٩٥١م/ حضره آلاف من الفلاحين من كل أنحاء سورية. وافتتح المهرجان الريفي الأول من نوعه في العالم العربي بمسيرة ضخمة من الفلاحين في الشوارع، وهم يحملون لافتاتٍ تطالب بالإصلاح الزراعي.

(راجع كتاب: الصراع الدولي على سورية ــ الترجمة العربية ص ١٦٣).

أهم المنجزات الصناعية في الرستن

معمل الإسمنت

ـ تأسس معمل الأسمنت في الرستن عام /١٩٥٥/.
ـ بدأ الإنتاج في الشهر التاسع من عام /١٩٦٠/.
ـ يبلغ رأسمال الشركة عشرون مليوناً من الليرات السورية.
ـ أقيم المعمل على مساحة من الأرض مقدارها /١٦٥٠٠ م/٢.
ـ **الكادر الفني**: يضم المعمل /٣٠٠/ عامل لتشغيل تجهيزات الإنتاج، وتأمين الصيانة اللازمة، وحُسْنِ التشغيل.
ـ الطاقة الإنتاجية الحالية المتاحة للمعمل /١٢١٦٠٠/طن أسمنت.
ـ حيث أنتج لعام /١٩٦١م/ /٥٩٤٨٤/طن أسمنت.
ـ لعام /١٩٦٢م/ /٨٨٦٩٣/ طن أسمنت.

ـ لعام /١٩٦٣م/ /١١٦١٢٠/ طن أسمنت .

وفيما يلي الكميات المنتجة منذ عام /١٩٨٠/ ولغايـة عام /١٩٨٥م/ .

السنة	كمية الإنتاج
١٩٨٠	١٢٢٢٦٣ طن أسمنت
١٩٨١	١٢٣١٧٦ طن أسمنت
١٩٨٢	١٢١٤١٩ طن أسمنت
١٩٨٣	١٢٣٧٠٤ طن أسمنت
١٩٨٤	١٢٣٢٦١ طن أسمنت
١٩٨٥	١٣٦٦٨٦ طن أسمنت

ـ يُنْتِجُ المعملُ : أسمنت بورتلاندي أسود عادي .

ـ المواد الخام متوفرة قرب المعمل .

ـــ يتألف المعمل من فرنٍ واحدٍ يعمل على الطريقة الرطبة، ولم تجر عليه أية توسعات.

ـــ يقدم المعمل لعماله الطبابة المجانية الكاملة .. والغذاء واللباس للعمل ووسائل الأمن الصناعي اللازمة للعمل.

ـــ النظرة المستقبلية: أُعِدَتْ الدراسات الفنية والاقتصادية لتوسيع وتطوير المعمل بإضافةِ فرنٍ جديد، وتحويل الخط الحالي الرطب إلى خطٍ جافٍ، ليصبح الإنتاج /٥٤٤٠٠٠/طن سنوياً ...

سد الرستن

في الجهة الشمالية من الرستن، تتقارب ضفتا نهر العاصي من بعضهما، وتشكلان ما يشبه خانقاً جبلياً، يسهل عنده حجز المياه ولجمها ... ولذلك وقعت الدراسات الهندسية على هذا المكان لبناء سد ركامي لحجز المياه وراءه .. وذلك لاستخدامها في ري سهل الغاب، وقت شح المياه في الصيف، وبالفعل بُدئ بتجفيف السهل المذكور بهمة ونشاط، وزُرع بكافة المحاصيل الزراعية التي لا تنمو إلّا على مياه الري كالقطن والشوندر السكري وغيره ...

وقد بوشر ببناء السد عام /١٩٥٨/. يفصل السد عن البلدة وادٍ سحيق يرفد العاصي بعد خروج الماء من مفيضه .. وقد أضفى

السد على البلدة طابعاً جميلاً وخلاباً، وهذا شاهدٌ على عبقرية الإنسان العربي في تغيير معالم الطبيعة وإخضاعها لخدمة الإنسان سيد هذا الكون الفريد... وكسي السدُ بالحجارة البازلتية الضخمة وارتفاعه ستون متراً، ويحجز مائتان وخمسون مليون متراً مكعباً من الماء.. وقد قام الطيران الإسرائيلي بقصف السد بعدة قنابل ولكنها لم تؤثر به، وذلك خلال حرب تشرين التحريرية /١٩٧٣/ وللسد بوابات ضخمة تسمحُ للمياه بالجريان وقت الفيضان وهذه البوابات الجبارة من الفولاذ.

أمَّا المياه المسالة للري لسهل الغاب فتؤخذ من نفقٍ شق في بطن الجبل المجاور لشاطئ البحيرة من الشرق... وقد استعاضت الدولةُ عن معمل كهرباء غجر الأمير بمعمل مائي في منحدر مجاور للسد تصل إليه مياه التوليد عن طريق نفق يخترق المنطقة ما بين سد الرستن ومكان المعمل على ضفاف العاصي، ونظام التوليد في هذا المعمل موسمي، يتبع سياسة التخزين المائي خلف السد، لغايات الري والصرف.. ويحتوي على مجموعتين من / نوع فرنسي /

يعلو السد طريق مفروش بالإسفلت وعلى يمينه يقام حالياً مستشفى للبلدة في موقع يشرف على أجمل مناظرٍ تحيط بالرستن: غابات من الأشجار الحراجية والمثمرة، وأبنية البلدة التي يتعانق فيها الجديد والقديم، بالإضافة إلى الأشجار التي غُرِسَّتْ على جانبي السد، لتعطي شواطئه منظراً فريداً، مما يجعل الرستن قبلة السياح من

رقم الإستطاعة

المجموعة	المركبة ك . ق . أ	السنة
١	٥٠٠٠	١٩٦١
٢	٥٠٠٠	١٩٦٢
	١٠٠٠	

القطر العربي السوري ، والدول العربية الشقيقة أيضاً للتمتع بهذه المناظر الخلابة وحُسْنُ الضيافة .

وفي جنوب السد على مسافة قريبة أنشئ الخط الدولي الرشيق والذي يصل بين مدينتي حمص وحماة ، عن طريق الجسر الواصل بين طرفي وادي العاصي .. ويعتبر هذا الجسر من أضخم الجسور في القطر العربي السوري وأجملها وأضفى على الرستن جمالاً يفوق الوصف ، وشاهد على عظمة ثورة الثامن من آذار وإنجازاتها المدهشة في كافة مناحي الحياة ... ويحضرني في هذه النبذة الخاطفة عن السد والجسر تلك الدولة البترولية ، التي عجزت عن جر قسمٍ من مياه تلاقي نهرين

عربيين بالقرب من حدودها للشرب وللري، رغم الإجتماعات المتكررة وآخرها في عام /١٩٦٤ م/، حيث نصت الإتفاقية لمدة /٩٩/ عاماً، وكانت كلفة المشروع /٨/ ملايين دينار فقط، بالإضافة إلى زراعة أربعين ألف دونم من الأراضي، ويمكن زيادة هذه المساحة باستمرار، رغم إمكانيات هذه الدولة الهائلة، وبترولها وناقلاتها العملاقة التي تحرسها /هذه الأيام ١٩٨٨/ سفنٌ حربيةٌ لدولة عظمى ... (راجع مجلة الثقافة العربية ــ ليبيا ــ العدد ٨ السنة الثالثة ١٩٧٦ / تحت عنوان: شط العرب في العلاقات العراقية ــ الكويتية).

هذا وقد برهنت ثورة الثامن من آذار أنها للشعب وللأمة العربية جمعاء، وهذا يدل على صدق الثورة الجماهيرية.

ومن الملاحظ أنَّ السد بعد بنائه، غمرت مياهه كثير من الأراضي الواقعة على طرفيه في الرستن وقرى: الزارة، تومين، حرب نفسة، جرجيسة، غجر الأمير.

والسد يرتفع عن قاع النهر كما مر معنا /٦٠ م/ وطوله /٤٠٠ م/ ومساحة البحيرة ثمانية ملايين من الكيلومترات المربعة، ويصلح سطح جسم السد لسير أعظم المركبات فوقه.

ويتمتع المسافر برؤية الماء والمناظر على طرفي الجسر، وإذا رغب في الراحة لبعض الوقت فأمامه المقصف بانتظاره.

معالم على الطريق
أو رياح التجديد في الرستن

إنَّ اعتبار البلدة مركز منطقة سَاهَمَ في تطويرها وظيفياً، اقتضى وضع مخططٍ تنظيمي للبلدة لضبط التوسع العمراني بشكل يخدم إحتياجات السكان والبلدة ككل. وقد قامت شركة بلغارية بوضع مخططٍ بالتعاقد مع حكومة القطر العربي السوري عام /١٩٦٢م/.

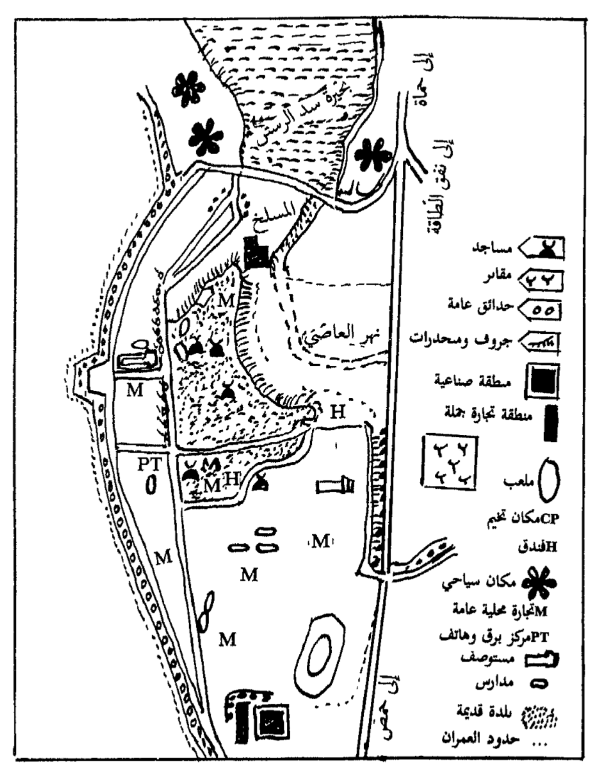
وأدخلت على المخطط التنظيمي بعض التعديلات من عامٍ لآخر.. وأصبحت البلدةُ بحاجة إلى مخطط جديد، بعد أنْ أخذ التوسع العمراني الحالي يتوسع بشكلٍ سريعٍ خارج إطار التنظيم وبخاصةٍ نحو الغرب والجنوب.

وقد أنجزت بعض المناطق التجارية وغيرها، التي وردت على

المخطط التنظيمي كالمسلخ، أما الملاعب الرياضية، والفنادق السياحية، ومناطق تجارة الجملة فلم تر النور بعد.

والمخطط الموضوع من قبل الشركة البلغارية قائم على مساحةٍ من الأرض طولها /٢٫٥ كم/ وعرضها /١٫٢ كم/ وحبذا لو أنجزت كافة منشأت المخطط المذكور، لأنَّ البلدة في الوضع الراهن، وحتى كتابة هذه السطور ١٩٨٧/١١/١ لا تزال تعاني من بعثرة أماكن الحرف الصناعية وغيرها.. مما يقلق راحة المواطن.. ويجلب له كثير من المعاناة وخاصة السوق التجاري، نظراً لازدهار البلدة اقتصادياً، وأصبحت المدينة بحاجة إلى سوق تجاري لبيع وشراء الحاجيات بشكلٍ مُلّحٍ.

ومن الجدير بالذكر أنَّ البلدية قامت بإنشاء عدد من الجدر الإستنادية للمحافظة على بناء البلدة القديمة وشُقَّتْ الطرق المعبدة بالإسفلت لتسهيل مرور السيارات والمارة ضمن البلدة، بالإضافة إلى بقية الخدمات المدنية كمياه الشرب وصالات إستهلاكية.



مخطط الرستن التنظيمي عام ١٩٦١ (وضعته شركة بلغارية)

ملحق رقم ـــ ١ ـــ

فتح الرستن

المؤرخ الواقدي ينقل رواية فتح الرستن عن شاهد عيان :

« وسار الأمير أبو عبيدة بالعسكر حتى نزل على الرستن فرأها حصناً منيعاً ، وماؤها غزير ، وهي مشحونة بالرجال والعدد العديد ؛ فبعث إليهم رسولاً يأمرهم أنْ يكونوا في ذمته ؛ فأبوا .. وقالوا لا نفعل حتى نرى ما يكون من أمركم مع الملك هرقل ، وبعد ذلك يكون إنْ شاء الله تعالى ، فقال الأميرُ أبو عبيدة / رضي الله عنه / فأنا متوجهون إلى قتال الملك هرقل ومعنا رجالٌ وأمتعة قد أثقلتنا واشتهينا أن نودعها عندكم إلى وقت رجوعنا . قال فأتى أهلُ الرستن إلى بطريقهم وكان اسمه / نقيطاس / وشاوروه في الأمر ، فقال لهم : يا قوم ما آلت الملوك يودع بعضها بعضاً وما يضيرنا ذلك ، ثم بعث إلى الأمير أبو عبيدة يقول له :

مهما كان ذلك من حاجةٍ فنحن نقضيها ونريد منكم المراعاة لأهل سوادنا حتى نرى ما يكون من أمركم مع الملك هرقل: فقال الأمير أبو عبيدة ونحن نفعل إنْ شاء الله. قال الواقدي / رحمه الله / عن ثابت بن قيس بن عَلَقَمة قال: كنت مِمَّنْ حَضِرَ عند أبي عبيدة رضي الله عنه، فعند ذلك دعا بأهل الرأي والمشورة من أصحاب رسول الله ﷺ قال لهم: إنَّ هذا حِصْنٌ منيعٌ ليس لنا إلى فتحه سبيل إلَّا بالحيلة والخديعة وأريد أنْ أجعل منكم عشرين رجلاً في عشرين صندوقاً وتكون الأقفال عندهم مِنْ باطنها حتى إذا ساروا إلى المدينة فَكَرُّوْا على اسم الله تعالى؛ فإنكم تُنْصَرون على من فيها من المشركين، فقال خالد بن الوليد فإذا عزمت على ذلك فتكون الأقفال ظاهرة ويكون أسفل الصناديق أنثى في ذكرٍ من غير شيءٍ يمسكها، فإذا حَلَّ أصحابُنا في حصن هؤلاء القوم يخرجون جملة واحدة، ويَكَبِّرون فإنَّ النَصْرَ مقرون بالتكبير فأجابه أبو عبيدة إلى ذلك، وأخذ صناديق الطعام المنتجة عند الروم، فَفَضَ أسافلها وجعلها ذكراً في أنثى فأول مَنْ دخل الصناديق: ضرار بن الأزور والمسيب بن نجية، وذو الكلاع الحميري، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، والمرقال، وهاشم بن نجعة، ومازن بن عامر، والأسيد بن سَلَمةَ، وربيعة بن عامر، وعكرمة بن أبي جهل، وعتبة بن العاص، ورادم بن فيَّاض، وقيس بن هبيرة، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، ومالك بن الأشتر، وعوف بن سالم وصابر بن كلكل، وسلمة بن

حبيب ، والفارع بن حرملة ، ونوفل بن جَرْعَل ، وجندب بن سيف ، وعبد الله بن جعفر الطيَّار . وجعله أميراً عليهم ... وسلَّموا الصناديق إلى الروم . فلَّما حطَّتْ الصناديق في الرستن ألقاها / نقيطاس / في قصر إمارته وارتحل الأمير أبو عبيدة رضي الله عنه وسار حتى نزل في قرية يقال لها : السويدية ، فلَّما أظْلَمَ الليلُ ، بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه بجيش الزحف ينظر ما يكون من أصحابه ، وما فعلت الصحابة رضوان الله عنهم ، فسار خالد بن الوليد برجاله حتى وصل القنطرة ، إذ بالصياح قد علا والتهليل والتكبير من داخل مدينة الرستن / قال الواقدي رحمه الله / كانَ من أمر الصحابة أنَّه لمَّا تركهم / نقيطاس / في دار إمارته ركب إلى البيعة / الكنيسة / مع بطارقته وأهل مدينته لِيُصَلُّوا صلاة الشكر لأجل رحيل المسلمين عنهم ، وارتفعت أصواتهم بقراءة الإنجيل وسمع أصواتهم أصحاب رسول الله ﷺ فخرجوا من الصناديق وشَدُّوا على أنفسهم وشهروا سلاحهم ، وقبضوا على إمرأة نقيطاس وحريمه ، وقالوا نريد مفاتيح الأبواب ، فَسَلَّمَتْها إليهم فلما وصلت المفاتيح إلى أيديهم ، رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على الشير النذير ، وكبسوا القوم على أبواب مدينتهم ، فلم يجسروا عليهم ، لأنهم بدون عدة ولا سلاح .. وبَعَث عبد الله بن جعفر الطيَّار ، وربيعة بن عامر ، والأسيد بن سَلَمَة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وعتبة بن العاص والفارغ بن حرملة ، وسَلَّم إليهم المفاتيح وقال : إفتحوا الأبواب

وارفعوا أصواتكم بالتكبير والتهليل فإنَّ إخوانكم المسلمين حول المدينة كامنون، فتبادر الخمسة إلى الباب القبلي، وهو باب حمص.. وفتحوه ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير، ودخلوا المدينة، وسمع أهلُ الرستن أصواتَ أصحاب رسول الله ﷺ فعَلِموا أنهم في قبضتهم وأنَّ مدينتهم قَدْ أُخِذَتْ من أيديهم، فاستسلموا جميعاً وخرجوا إليهم وقالوا: إنَّا لا نقاتلكم ونحن الآن أسرى لكم فاعدلوا بيننا، فأنتم أحب إلينا من قومنا.

قال فعرض خالد بن الوليد رضي الله عنه عليهم الإسلام، فأسلم منهم الكثير، وبقي الأكثر يؤدي الجزية، وأمَّا أميرهم نقيطاس فإنه قال: لا أريد بديني بديلاً. فقال له خالد بن الوليد رضي الله عنه: الآن فأخرج بأهلك عنَّا وحَّدِثْ قَوْمَكَ بعدلنا فأخرجوه من الرستن. فتوجه بأهله وأمواله إلى حمص. وعَلِمُوا أنَّ العرب تصبحهم أو تمسيهم بالغارة، وبعث عبد الله بن جعفر الطيار إلى أبي عبيدة يخبره بالفتح والنصر. فسجد لله شكراً، وبعث إليهم أَلْفَ رجل من اليمن وأوصاهم بحفظ الرستن، وأمَّرَ عليهم هلال بن مرة اليشكري، فلَّما استقروا بالرستن رحل خالد بن الوليد رضي الله عنه، وعبد الله بن جعفر الطيار وأهلهم وعساكرهم وتوجهوا إلى حماة / إنتهى نص الواقدي/.

انتزعنا نص فتح الرستن من كتاب فتوح الشام للإمام محمد بن

عمر الواقدي أحد جهابذة الفكر العباسي / ١٣٠ ــ ٢١٧ هـ / وهذا الكتاب رغم ما فيه من الرواياتَ الجَّمة التي تَوَفَّرت للواقدي منها القوي والضعيف والمستمر، نرى أنَّ لغته بعيدة عَنْ أسلوب الواقدي التي أطَاعَتْ اللغة قيادتها له. ومنْ المؤسف حقاً لأنْ يبقى هذا الكتاب المنحول للواقدي مبنى وليس معنى إلى الآن بدون تحقيق. ونحن لا نلوم الواقدي على كثرة رواياتِه وأسانيده، فقد كانَ هَمَّهُ أولاً، بيان فضل الصحابة والمسلمين الأوائل في فتوحاتهم لبلاد الشام والأقطار الأخرى، عندما رأى المحدثون / علماء الحديث / يهابون الخوض في هذه المسائل التاريخية الوعرة، فَشَمَرَ عن ساعد الجد ورحل إلى الأقاليم الإسلامية، وزار كثيراً مِنَ أماكن المعارك واتصل بأبناء الصحابة، يسألهم عن مصارع آبائهم، فتجمعت لديه هذه الذخيرة الهائلة من الروايات التاريخية، ولكن أَحَدْ ضعاف اللغة سمع أحد شيوخه يقوم بإملاء كتاب فتوح الشام، فَنَقَلهُ بهذه اللغة الركيكة.

وإذا قَلَّبْنا هذا النص الفريد عن فتح مدينة الرستن وسألنا أنفسنا ماذا يريد أنْ يقول الواقدي لطالعنا من وراء السطور الحقائق التالية:

ــ تقديم لوحة للقارئ عن خطورة موقع الرستن بالنسبة لإمكانيات الجيش الإسلامي، حيث لم يكن للمسلمين الفاتحين دراية

بفن حصار المدن، لفقدانهم المنجنيقات وهي مدفعية الحصار في تلك العصور الأولى من الفتح العربي.

ـ من الملاحظ أنَّ الرستن في هذا النص فُتِحَتْ قبل معركة اليرموك.

ـ الشيء الهام في هذا النص أنه أخذ عن شاهد عيان وهو /ثابت بن قيس بن علقمة/.

ـ يظهر بوضوح في النص: الإقدام على التضحية وبذل النفس طلباً للشهادة وإعلاء كلمة الدين، بالإضافة إلى تسجيله لأسماء تلك المجموعة الفدائية من الرجال العظام.

ـ النص فيه إضطراب واضح حول دور خالد بن الوليد وعبد الله بن جعفر الطيَّار، حول البت في بعض الأمور المصيرية، ناشئ عن تحيز /تفضيل/ ناسخ الكتاب لإحدى الشخصيتين الفذتين.

ـ ويظهر بجلاء أنَّ الرستن في العهد البيزنطي، كانت أسقفية وعلى غاية من المناعة والقوة مع أختها شيزر، مما جعل القائد المسلم أبا عبيدة يلجأ إلى الحيلة في فتحها، لإقلال خسائره البشرية.

ـ وهكذا دخلت الرستن في كيان الدولة العربية الإسلامية.

وجاء في كتاب (سيف الله خالد) لمؤلفه الصاغ: محمد فرج

من القطر العربي المصري أنَّ الرستن فتحت أبـوابها للعـرب بدون مقاومة :

« وصل خالد بن الوليد إلى حمص وحاصر المدينة ، وكان على مقدمة الجيش ، وطال الحصار ، وَفَقَدَ أهْلُها الأمل في وصول مددٍ لهم ، كان قد وعدهم به هرقل ، وحدث أنْ وقع زلزال بالمدينة ، فأخذ أهلها الرعبُ ، وفزعوا إلى رؤسائهم وطلبوا الصلح وأجيبوا إليه » .

ويواصل الصاغ : محمد روايته عن متابعة عمل الجيش العربي المُحَرِر : « خَلَّفَ أبو عبيدة / عُبادة بن الصامت على حمص / ومضى بجيشه نحو حماة . ففتحت له / أداستان / أبوابها وصالحه أهل حماة ، كما أسرع أهل شيزر إلى مصالحته ثم فتح سلمية » ص ١٦٥ .

ومن المعروف أنه لا توجد مدينة أو موقع مأهول بشرياً بين حمص وحماة ، وبهذا الاسم / أداستان / والأصح / الرستن / ولربما كان هذا الخطأ مطبعي ، ولم تفتح الرستن أبوابها لخالد كما مر معنا في الصفحات السابقة إلا بالحيلة .

ملحق رقم ـ ٢ ـ

أبو يزيد البسطامي

أبو يزيد /أبا يزيد/ طيفور بن شروسان البسطامي من أشهر الصوفيين المسلمين. قضى حياته في بسطام من أعمال قومس، فيما عدا فتراتٍ قصيرة اضطَّرَ فيها العيش بعيداً عن بلده، لعداوة المتكلمين له من أهل السنة، وتوفي في بسطام /٢٦٤ هـ ـ ٨٧٤ م/ وقد ذاع أنَّ الجايتو محمد خُدابنده الأخشيدي بنى ضريحاً فوق قبره سنه /٧١٢ هـ ـ ١٣١٣ م/ ولم يكتب أبو يزيد شيئاً.. على أنَّهُ انتهى إلينا نحو خمسمائة قولٍ من أقواله، بعضها جريء كل الجرأة يستشف منها أنَّ الصوفي بلغ بالمجاهدة حالة الفناء في الله فأصبح /عين الجمع/ وقد جَمَع هذه الأقوال ورواها أهل حضرته وزوَّاره، خاصة مريده، وتابعه:

أبو موسى / الأول / عيسى بن آدم أكبر أبناء أخيه آدم. وقد تلقّى عنه الصوفي البغدادي الشهير الجنيد أقوالاً من هذا القبيل باللغة العربية، وأهم من أخذ من أبي موسى، هو إبنه موسى بن عيسى /.../ وعنه نَقَلَ مأثوره طيفور الأصغر بن عيسى، الذي لا يتبين موضوعه من شجرة نسب الأسرة وغيره من الرواة.

ويجب أن نذكر بخاصة من بين رواة أبي يزيد، الذين دَوَّنوا أقواله أبا موسى الثاني الدبيلي وهو من دبيل بأرمينية، واسحق إبراهيم الهروي المعروف بـ / سُبْتَهْ / وهو تلميذ إبراهيم بن أدهم، والصوفي المشهور أحمد بن خَذْرَوَيْه الذي زاره في الحج. وكان أبو يزيد صديقاً لذي النون المصري وقد كتب الجنيد شرحاً لأقواله، بَقِيَتْ أجزاء منه في كتاب (اللمّع) للسرّاج، وأكمل مصدرٍ لحياة أبي يزيد وأقواله هو كتاب (النور في كلمات طيفور) لأبي الفضل: محمد بن علي بن أحمد بن الحسين بن سهل السهلجي البسطامي المولود في سنة /٣١٩ هـ / /٨٩٨ ــ ٩٩٨ م/ والمتوفي سنة /٤٧١ هـ/ وقد نشر هذا الكتاب في طبعةٍ غير موفقةٍ كل التوفيق: عبد الرحمن يدوي: شطحات الصوفية، القاهرة ١٩٤٩م /جـ١/.

ومن أهم أسانيد السهلجي أبو عبد الله محمد بن عبد الله الشيرازي لسيرة الحلّاج الذي توفي سنة /٤٤٢ هـ ــ ١٠٥٠ م/ والذي

لقيه السهلجي سنة /٤١٩ هـ/ وسنة /٤١٦ هـ/، وشيخ المشايخ أبو عبد الله محمد بن علي الداستاني الهجويري.. (كشف المحجوب الفصل ١٢) أما كتاب (القصد إلى الله) المنحول، فيشمل تنميقاً لقصة معراج أبي يزيد. وكان شيخ أبي يزيد في التصوف صوفياً جاهلاً باللغة العربية اسمه: أبو علي السندي. لم يجد أبو يزيد بُدّاً من أن يُلَقّنهُ من آيات القرآن ما يقيم به فرضه، وجازاه السندي على ذلك بإرشاده إلى التوحيد، ولا نستبعد كل الاستبعاد أنْ يكون بعض مؤثرات هندية قد أثَّرتْ في أبي يزيد عن طريق شيخه هذا... وقد كانَ أبو يزيد على خلاف المتصوفين المتأخرين كأبي اسحق الكازروني وأبي سعيد بن أبي الخير منطوياً على نفسه كل الإنطواء، فلم يقم مثلهم بخدمة الفقراء.. ولكنه كانَ سنداً لأن يخلص الناس من النار، بأنْ يَتحمل من أجلهم العذاب، بل لقد مضى إلى حدٍ أنْ يجد من الأقوال ما ينقد عذاب جهنم الذي أُعِّدَ لمن حَلَّتْ بهم النقمة وهم ليسوا آخر الأمر إلّا قبضةٍ من تراب وكان شعوره بجلال الله يملأ شغاف قلبه مقترناً بشعورٍ من الخشوع والخشية لله، حتى ليحس في حضرته بأنه زنديق يكاد يهم بإلقاء زنار المجوس.

وكان شوقه ينصرف إلى مجاهدة نفسه مجاهدة دائمة، أو على حدٍ تعبيره: /أنا حَدَّاد نفسي/ حتى يحررها من جميع الحُجُب التي

تحول بينه وبين الوصول إلى الله. وهو يصف هذه المجاهدة وصفاً ممتعاً حداً يكشف فيه عن نفسه بأقوالٍ فيها تشبيهات غاية في العظمة. فالدنيا والزهد والعبادات والكرامات والذكر، بل المقامات ليست في نظره غير حجبٍ تحجُبُه عن الله، وحين تخَرَجَ آخر الأمر من أنيَّته بالفناء كما تُنْسَخُ الحية من جلدها، بلغ المقام المطلوب وعَبَّر عن هذا التغيير في وعيه بِنَفْسِهِ بتلك الشطحات المشهورة التي أثارت ثائرة معاصريه وصَدَمَتْ مشاعرهم/ سبحاني ما أعظم سلطاني/ طاعتك يا رب أعظم من طاعتي لك/ أنا العرش والكرسي/ أنا اللوح المحفوظ/ كنت أطوف حول البيت أطلبه، فلما وصلت إليه وجدت البيت يطوف بي/.. وفي تفكره حَلَّقَ بقفزات في العالم العلوي غير المحسوس، فأُخِذَ عليه أنَّه ادَّعى أنَّه عَرَج به إلى السماء، كما هي الحال في معراج النبي. وقد زَيَّنَهُ الله أثناء هذه القفزات بوحدانيته، وأَلْبَسَهُ آنيَته ولكنه أمسكَ عنْ أنْ يظهر للناس وهو على هذه الحال، أو أنَّه طار بجناحي الدَّيمُومُةُ في فضاء اللا كيفية ونزل على أرض الأزلية، ورأى شجرة الأحدية، فتحقق أنَّ هذا كُلَّهُ كانَ وهجاً أو أنَّه نفسه كانت كذلك.. الخ. وَقَدْ واجَهَ في هذه الأقوال على ما يظهر المشكلة القصوى في كلِ تَصَّوفٍ. وثمة أسطورة متأخرة في الزمن تجْعَلَهُ يَحُلُ في يسرٍ ألغازاً طُرِحَتْ عَلْيه في ديرٍ للنصارى مما حدا بجميع سكان

الدير إلى الدخول في الإسلام . « دائرة المعارف الإسلامية ــ ترجمة الأب شحاته قنواتي ــ H. Ritter » .

وجاء في كتاب الإمام جمال الدين أبي الفرج : عبد الرحمن ابن الجوزي البغدادي المتوفي سنة /٥٩٧ هـ/ والمسمى : تلبيس إبليس /ص ١٦٧/ ... وأنكر أَهْلُ بسطام على أبي يزيد البسطامي ما كان يقوله حتى إنَّهُ ذكر للحسين بن عيسى أنَّه يَقول : لي معراجٌ كما كان للنبي ﷺ ، فأخرجوه من بسطام وأقام بمكة سنتين ثم رَجَعَ إلى جرجان فأقام بها إلى أنْ مَاتَ الحسين بن عيسى ، ثم رجع إلى بسطام .

وَمِنْ هذه الفقرات التي اقتبسناها من الكتاب المذكور ، نرى شطحات أبا يزيد البسطامي التي كانت سبب عداوة أهل السنة له . وقد كان لأبي يزيد على ما يظهر تأثيرٌ عظيمٌ في أقصى الجناح الشرقي للعالم الإسلامي ، فقد عَثَرْتُ في دائرة المعارف الإسلامية أيضاً (المجلد الثامن ص ١٨٩) على فقراتٍ يَتضحُ منها وصول تعاليمه الصوفية حتى بلاد الهند . فتحت عنوان : الأدب البنغالي في عصر التكوين /٩٠٠ ــ ١٢٠٠ م/ ورد ما يلي : وتدل الحفريات الأثرية في باهي بور /زج شاهي / وفي ميناقي / تريبورا / التي أَفْضَتْ إلى الكشف عن قليلٍ من السكة العباسية ــ نقود عباسية ــ في الفترة ما بين القرنين الثامن والثالث عشر الميلادي . ومن تاريخ الأولياء المسلمين ، مثل بايزيد

البسطامي المتوفي سنة /٨٧٤م/ في / ناصر آباد / من أعمال كونكث على وجود إتصالات تجارية، وتبشيرية بين العالم الإسلامي والبنغالي في الوقت الذي كانت فيه البنغالية في دور التكوين.

وقد تناول سيرة الولي أبا يزيد البسطامي عددٌ كبير من المصنفات التاريخية والصوفية، أمثال الحافظ بن كثير في كتابه البداية والنهاية جـ ١١ ص ٣٥، ودائرة معارف فؤاد أذام البستاني جـ ٥ ص ٢٢٥ ـــ ٢٢٦. ودائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي جـ ٢ ص ١٨٨. وسير أعلام البلاد لمحمد بن أحمد الذهبي. والموسوعة العربية الميسرة بإشراف الدكتور محمد شفيق غربال. وغيرهم كثير....

وجُّل هذه المؤلفات تتشابه في خطوطها العريضة في بسط مذهب أبا يزيد البسطامي في الصوفية، ولكن أكمل عرضٍ جاء، هو الذي ورد في دائرة معارف الإسلام، ومن المدهش أنَّ رواية دخول سكان الدير في الإسلام التي وردت في الدائرة، متداولة عند المعمرين من أبناء بلدةِ الرستن حتى اليوم. ومن المدهش أيضاً أنْ تنطبق رواية دائرة معارف الإسلام مع رواية المعمر الرستني مواليد /١٩٠٥/ في الخطوط الرئيسية... وكيف أجاب أبو يزيد البسطامي على جميع الأسئلة التي طرحها رئيس دير الرهبان، وكلهم قد أخذته الدهشة من

سعة علم أبا يزيد البسطامي وعندما جاء دور أبا يزيد في السؤال، قال لرئيس الدير: ما هو مكتوب على باب الجنة؟؟

فعجز رئيس الدير وحار في الإجابة. هنا استجاب الحاضرون من الرهبان إلى منطق المناظرة وأعلنوا إسلامهم على حد قول الراوي الرستني....

وآخر كتاب ظهر عن أبي يزيد البسطامي /١٩٨٧م/ قام مؤلفه بلم شتات ما قيل عن أبي يزيد في بعض المصادر، قصد بها الوعظ والإرشاد. ثم أدار المحاورة التي قيل عنها أنها دارت بين رئيس الرهبان في دير سمعان وأبي يزيد. وكل إجابة لأبي يزيد كانت مشفوعة بآية من القرآن الكريم، تدل على عمق فكر أبي يزيد في شتى العلوم النقلية والعقلية.. ونقتطف بعض ما جاء في هذه المحاورة الطريفة:

الراهب: أسألك عن شيء خلقه الله ثم اشتراه؟

أبو يزيد: الذي خلقه الله واشتراه، نفس المؤمن. لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (التوبة ١١١)

الراهب: وأسألك عن شيء خلقه الله واستعظمه.

أبو يزيد: الشيء الذي خلقه الله واستعظمه هو كيد النساء بقوله تعالى ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (يوسف ٢٨)

ثم نختار قطعة أخرى :

الراهب : وعن شجرة لها اثنا عشر غصناً في كل غصنٍ ثلاثين ورقة ، وفي كل ورقةٍ خمس زهراتٍ ، اثنتان في الشمس وثلاثة في الظل .

أبو يزيد : أما الشجرة فهي السنة ، وأما الأعضاء فهي الشهور ، وأما الأوراق فهي الأيام ، وأما الزهرات فهي الصلوات الخمس : في اليوم والليلة ثلاثة في الظل ـ المغرب والعشاء والصبح ـ واثنان في الشمس وهما : الظهر والعصر ...

وهذه قطعة أخرى من المحاروة :

الراهب : أخبرنا عن قومٍ أوحى الله إليهم لا من الجن ولا من الإنس ولا من الملائكة ...؟

أبو يزيد : هم النحل. لقوله تعالى ﴿وَأَوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحـلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعرِشُونَ﴾ (النحل ٦٨)

الراهب : أخبرنا أين يكون الليل إذا حاء النهار وأين يكون النهار إذا جاء الليل ...

أبو يزيد : إنهما يكونان في غامض علم الله تعالى ما ظهر عليه نبي

مرسل، ولا مَلَكَ مُقَرَّب، بل كان ذلك في غامض علم الله تعالى ...

تعليق « هذه الحادثة الفلكية يستطيع أن يأت بها الآن طالبٌ في المرحلة الإعدادية بعد دراسته لحركة الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس » ...

أبو يزيد : هل بقي عندكم شيء تسألونه ؟

الراهب : لا .

أبو يزيد : أخبرني أنت عن مفتاح السموات ومفتاح الجنة؟ فسكت كبيرهم ...

الرهبان : سألته عن مسائل كثيرة فأجاب عنها جميعها ... وقد سألك عن مسألةٍ واحدةٍ فعجزت عن جوابها ...!

الراهب : ما عجزت .. ولكنني أخاف أنْ أجيبه عن سؤاله فلا توافقوني .

الرهبان : بل نوافقك إذ أنت كبيرنا . ومهما قلت لنا سمعناه ووافقناك عليه ...

الراهب : مفتاح السموات والأرض قول : لا إله إلّا الله محمد رسول الله ..

فلما سمعوا ذلك منه أسلموا عن آخرهم، وخربوا الدير وبنوا

مسجداً . (من كتاب : أبو يزيد البسطامي وقصته مع راهب دير سمعان ـــ إصدار مؤسسة النوري بدمشق) .

ملحق أدبي ـــ ٣ ـــ

جَنَّةٌ على نهر العاصي

بهذا العنوان المثير، زَيَّنَ عضو المجمع العلمي الفرنسي / موريس باريس / روايته الرومانسية الجّذابة ولم يجد لها أرضية سوى بقعة الرستن، حيث الأشجار الوارفة الظلال والينابيع الرقراقة ونهر العاصي، هذه الرواية التي نَلْمَح ونستشف من خلال سطورها عقدة التفوق الأوروبي بأجلى مظاهرها، عقلية حفيد وسليل الصليبيين، وقلب حقائق التاريخ والتعصب الذميم، وَحمَل الإنسان الغربي الغازي للشرق الخالد القيادة الحكيمة، وللإنسان العربي الشرقي كل الشرور والآثام، والنهم الجنسي، حيث لا همَّ له إلَّا الإنغماس في الشراب واللهو، تاركاً أمر الرعية حيث يسود الظلم والفساد والإنحطاط الخُلُقي، في هذه

الرواية ، نرى قَلْبَ أطراف المعادلة التاريخيّة بأوضح صُوَرِها ، حيث أسقط المؤلف أفكاره الموروثة عبر الحروب والغـزوات الحاقـدة على شخصيـات الروايـة .. وحتـى لا أُفْسِدُ الإستمتـاع الذهنـي لبـعض الوقت .. لعقدة الرواية سأتركها كما هي ، مع خطوط التلخيص السريعة لأحداثها الدامية ومـآسيها الآسرة .. والآن جاء دور موريس باريس وأشعار سعدي الشيرازي :

في حماة وفي يوم محرق من أيام شهر حزيران /١٩١٤/ وفي مقهى صغير عتيق ، كنتُ جالساً على ضفة نهر العاصي . والسواقي ترفع مياهه المباركة ، وتتابع دورانها ليل نهار على طول المجرى ، فتملأُ بأنينها أجواز الفضاء . وكنت بصحبة شاب عالم يقص عليَّ من مخطوط عربي قصة غرام ودين لقد كانت ساعة من الساعات المقدسة التي تظل دائماً في صميم الذاكرة .. ذخيرة ساحرة .. في ذلك اليوم وفي هذا البلد العجيب الجاف ، حيث تسفو رياح الصحراء دوّامات من غبار البقاع النائية ، بقـاع الصليبـيين والسلجوقـيين واليهود !! والآشوريين والفنيقيين . كنتُ أراقب تأهب القافلة الصغيرة ، التي كان عليها أنْ تهديني إلى كتشف القلاع القديمة .. والتعرف على سلالة الحشاشين المعروفين .. كان هذا الشاب إيرلندياً عهد إليه المتحف البريطاني في التنقيب في مدينة جَرابُلس على نهر الفرات ، جمعتني به فرصة سعيدة

حينما كان متسكعاً مثلي في أزقة السوق. وما أسرع أنْ يِصْطَحِبَ أوربيان قد ضَّلا طريقهما في مثل تلك المنازل العمياء الخرساء... وتحت مثل هذه الشمس المحرقة، كان هذا الشاب الإيرلندي ذا خيال مرتجل وفي استطاعته أنْ ينفق في كل لحظةٍ حياة وهو من الذين، تبعثُ فيهم قيظُ سورية المفزع ضروباً من الخيال وليد إرتجافة الأعصاب الملتهبة، وقمنا بجولتنا في هذا البلد.. شاهدنا البساتين على النهر، تزيد في طول البلد.. بضع مئاتٍ من الأمتار، على أنَّ هذا كله لم يكن يدلنا على شيء. أي روح يكمن في حماة؟ فيما يفكر أهلُ سورية؟ هذه المناظر الرتيبة المغلقة، ما قيمتها نريد أنْ ندركَ من وراء ذلك شيئاً في دخائل الصدور، أكثر مما في داخل الدور.

قال لي الإيرلندي: «ألَا تعتقد أنَّ مِنَ الأفضلِ أنْ نبحث الآن عن بعض الآثار القديمة».

وقادنا أحد الأهلين إلى منزلٍ وقَرَعَ بابه بضع قرعاتٍ مصطلحٍ عليها وجَرَتْ مناقشة.. وبعد مضي بضع دقائق سنحت لنساء المنزل بالإحتجاب، دخلنا في ديوان حيث أطلعنا يهودي بعد تناول القهوة على كنوزه، تمثالان نصفيان أو ثلاثة لبعض ملوك تدمر، قد رُفِعَتْ عنها لفافاتها التي تشبه لفافات المومياء، وقطع من النقود الذهبية والفضية، نقش عليها رَسْم الأباطرة السوريين ومخطوط عربي.

قال الإيرلندي بعد فحصٍ سريع: المخطوط مكتوب بخطٍ مائلٍ، ولكنه يبدو وبعد أول نظرة أَنَّهُ غريب، من المحتمل أنْ يكون لأحد هجناء سورية.. وكان نتاج أب إفرنجي وأم سورية، أو نتاج أم إفرنجية وأب سوري، وكانت كتاباتهم نادرة بيد أنَّ روحهم فذة. وكما وجدنا أنَّ مؤلف كتاب: التاريخ اليوناني في شبه جزيرة «المورة» كانَ واحداً منْ هجناء اليونان.. فكذلك من المرجح أنْ يكون مؤلف هذه القصة هجيناً سورياً تابعاً لإحدى أُسرِ البارونات وكانَ يَمُتُّ إليه بنسبٍ ويباشر خدمته مترجماً للغات الشرقية، ومن محاسن الصدف، أنْ اشترى زميلي هذه الأوراق الثمينة، واخترت لنفسي قطعة ذهبية، ترجع إلى عهد الإمبراطور /هِلْيوغَابَال/ حين كانت الصخرة السوداء التي كانَ يعبدها هذا المجنون الشاب.. وذهبنا للجلوس في القهوة المتواضعة تحت أشجار الحور، التي تشرف على نهرالعاصي، غابت الشمس، وطفق الأعرابُ يحضرون إلى القهوة وبدأت عصافير الجنة تطير طيرة المساء، وعكف زميلي العالم على المخطوط يَبْحثَهُ ويُمْعِنُ فيه ولبثتُ تحت غصون هذه الأشجار الوديعة التي تشبه أشجار بلدتنا، غير أنها مباركة في هذه البقعة، إذا سَمَحت أنْ تعيش في مثل هذا الجو الجاف؛ فأذاعت فيه النسيم الرطب، وأشاهد الماء السلسل الذي يَبْعَثُ الحياة.. وعجلات الأرضية المتواضعةَ، وهي تسمو إلى ذروة الشعر الحي.. وأتذوق لذة هذه الواحات الجرداء العتيقة التي تضمها

آسيا بين جناحيها والتي تتسق مع نبضات قلوبنا الخفية . يا له من حنين يعجز عنه القلم المبين .. أي شيء يقصده القلق الذي بعثره فينا ذلك المظهر الرائع البسيط ، ما الذي أَعْشَقَهُ في سورية . ما الذي جعلني إلى التعلق فيها . . . لكأني أستنشق في هذه البقعة ، فضلاً عن نسيم الأنهر الأربعة ذكرى مباهج البستان الذي كانت تَسدُ طريقه في الماضي السحيق ، سيوفٌ ملتهبة مِنْ الملائكة المقربين .

قال الإيرلندي بعد ساعة أمضَاها مستغرقاً في قراءة نص المخطوط . حقاً إنَّها لقصة محببةٌ ممتعة ، ومما يزيد في إمتاعها أنَّ فصولها حَدَثَتْ في هذه المنطقة ، ألم تَلَمْح وأنت قادم مِنْ حمص آثار قصرٍ وديرٍ على ضفاف نهر العاصي /أورنتس/ وعلى مقربة من قرية /رستان/ في هذا المكان الذي تذكره الخرائط باسم قلعة العابدينْ كان يعيش في القرن الثالث عشر الميلادي ملكٌ مِنْ ملوك الإسلام ، وما كنتُ أعرف ذلك من قبل ، وافر النعمة غزير الثقافة ، وما كان أكثر عدد هؤلاء الحكام الذين يقضون حياتهم بين النساء ويلتذون سماع الموسيقى والشعر ويتطارحون ألوان اللغة ومشاعر النفوس ، ثم تدركهم النهاية المحتومة فيصبحون على حين غرة أثراً بعد عينٍ أو ذرة في هبة ريح ، متلاشية تلاشي الزهرة اليانعة ، قلت له حَسَناً فَعْلَتَ ، فتلك معونة منك طيبة . إنَّ حماة بعد الظهيرة وتحت الشمس خاوية عادمة

الروح ... وها هو ذا الليل يرخي سدوله .. وليجعل لي هذا الليل عامراً بالأشباح ولتستدع لي أشخاص هؤلاء المجانين ليبعثونا على اللذة والإمتاع . فأجابني ضاحكاً : سأكون في خدمتك وستجد طائفة مِنْ صُوَر الحسن العربي تحكي باقة مِنْ زهور الخزامي المشرقة ذات القلب القاتم . على أنه يجب ألّا يغرب عن البال أنّ كتابة الشرقيين كانت أقرب إلى أن تكون أخباراً منها إلى التاريخ ، يسردون الأخبار دون إرتباط أو تنسيق ، لهذا يتعذر أنْ تفهم القصة إنْ نَقَلْتُها إليك كما هي ، دعني أَقُصُّها عليك كما أريد دون أنْ أتقَيَّدَ بحرفيتها ، حتى يتسنى لك أنْ تفهم وأذكر أبيات سعدي تقول وكأنه كان قد كتبها على ضفة العاصي :

للسواقي المُصعِدات الماء رَجْعٌ وأنين
يطرب الصوفي من ذاق شراب العاسقين
وإذا طنَّ ذبابٌ ظلَّ يشجوه الطنين
فهو يطوي رأسه بين يديه في سكون
ذاك لَحْنٌ أبديٌ رائعٌ بين اللحُون
بيد أنَّ الأذن قد يعجزها أنْ تستبين

هيا إلى القصة إنَّ أذني وقلبي على أهبة الأصغاء، ما أكثر ما يضيق المرءُ في حماة .. حين تكون عادمة الروح ، أَيَّةُ ثمرةٍ يجنيها المرءُ ينزح من بلدٍ ناءٍ ويتجسَّم أعباء السفر إذا لم يجد في هذا البلد ما يشفي

به نفسه من الموسيقي؟ قُصَّ لي قصتك التي صيغَتْ مِنَ الفضة والذهب، وزرقة السماء، ولَنْ تجد أكثر مني استعداداً لسماع القصة وتَذَوُّقاً لألحان آسيا.. وفي قطعٍ مِنَ الليل.

قَصَّ الإيرلندي الشاب هذه القصة:

ـ وخلاصة القصة بإيجاز /عبد الرحمن/.

ـ استقبال أمير القلعة لبعثةٍ من نصارى طرابلس الشام لعقد معاهدة سلام.

ـ وقد أبقى أمير القلعة أحد أفراد البعثة نظراً لدماثة أخلاقه، وقد اندهش الفارس الصليبي /جيوم/ وهذا هو اسمه /من الحياة الناعمة التي كان يَرْفُلُ بها أمير القلعة.

ـ قام جيوم بسرد القصص عن الحياة في أوروبا على مسامع الأمير، ودور الفاتنات والفرسان في الحياة الأوروبية.

ـ تَعَلَّقَ الفارس الصليبي جيوم بحب زوجة أمير القلعة وعلاقته مع الجواري.

ـ وفجأة يَحْدُثُ هجوم صليبي من أنطاكية على القلعة ويُقْتَلُ قائدها.

ـــ وقد عَلَّل الفارس جيوم إنهزام المسلمين على عاتق ملك القلعة لانغماسه في الملذات، وترك أمر تقوية أبراج القلعة وتجبره على الفلاحين.

ـــ وقد تَنَصَّرتْ بعد ذلك زَوْجَةُ أمير القلعة واقترنت مع جيوم بعد التنصر.

ـــ لقد حاصر الصليبيون القلعة مدة ستة أشهر والعاشقان يرشفان كؤوس الهوى والحب المُحَّرم على ما يبدو.

ـــ ثم استولى المحاصرون الغزاة على القلعة وقد هرب الفارس جيوم إلى دمشق.

ـــ بعد هذه الأحداث الدامية تزوج القائد المسيحي من العربية المُتَنَصِرة.

ـــ وبقي جيوم في دمشق مدة ستة أشهر.

ـــ ولأجل تعمير المنطقة طلب حاكم القلعة المسيحي فلاحين من دمشق ليعمروا سهولها مقابل أجرٍ معينٍ.

ـــ وفي هذه الأثناء هَرَبَ جيوم مِنْ دمشق تحت جنح الظلام، وقد صُدِمَ كثيراً عندما عَلِمَ أنَّ غانية الشرق قد تزوجت من حاكم قلعة العابدين.

ـــ أما مطران القلعة فقد أحب الفارس جيوم على كل حالٍ ، لأنه يعرف اللغة الشرقية ، وقد كانَ هدفُ المطران تأسيس مملكـة مسيحية ، أما جيوم على كل حالٍ لاقى مصيراً محزناً ، حيث أصابه المرض ، ثم قال الشاب الإيرلندي لمحدثه في ختام القصة :

آه نسيتُ أنْ أخبرك أنَّ الذي كتب المخطوط يحكي في الصفحة الأخيرة ، أنَّهُ في طفولته عَرف غانية الشرق الحسناء ، وقد أُصبحت رئيسة الدير في قلعة العابدين ، وإنه يمتلك هذه القصة من جَّدته إيزابلاّ الحكيمة ، إذ إنه نَتنَاً من السلالة الثالثة الناتجة من زواجها بُعيد موت جيوم الفاجع بأحد فرسان أمير أنطاكية . (انتهى التلخيص لأحداث القصة ـــ تاريخ كتابتها تموز ـــ تشرين الأول ١٩٢١ م)

ملحق رقم — ٤ —

من نواحي الرستن

«تلبيسة»

قال المرحوم وصفي زكريا في كتابه / جولة أثرية / ص ٣١٥ عن تلبيسة ما يلي:

«والسائح قبل وصوله إلى قرية تلبيسة يرى في يمينه على جانب الطريق آثار خربة تدعى خربة السبيل، في وسطها حجر رحى كبير، هو أحدُ أمثاله الكثر المنتشرة في رسومٍ وخرائب هذه البقاع.. وَلَعَلَّهَا كانت لعصر الزيتون أو طحن البرغل، أما تلبيسة فقرية كبيرة / بينها وبين حمص ١٢ كم/ بيوتها قُبَبٌ يخالها الغريب لا سيما الأوروبيون القادمون إلى بلاد الشام حديثاً معسكر جُنْدٍ، وفي غرب هذه القرية

مستنقعٌ يحتاج للتجفيف. وبعض بيوت تلبيسة بُنِيَ في ظهر سفح التل المعروف باسمها على ما قيل، ينسب إلى قرية تقع شرقي بيادر القرية تدعى بيصة، صارت بالتحريف بيسة.. وَقَدْ ظَنَ الأثري /دوسو/ هذه القرية هي (آبزو Abzu) التي وردت في رقم تل العمارنة. ذلك لأن تلبيسة ظهر فيها كثير من العاديات وكان فوق تل هذه القرية بناء عسكري، ذكره المرادي في /سِلْك الدرر/ في ترجمة عبد الرزاق الجندي وسمَّاهُ قلعة تلبيسة الكائنة بين حمص وحماة.. وهذه القلعة أصْلُ بنائها في زمن الوزير: سليمان باشا العظم، وعينت الدولة فيها ينكجرية بعلاييف وتعابين سلطانية، لأجل حفظ الطرقات للحج وغيره».

«قُلْتُ وَلَعَّلَ بناء هذه القلعة لم يكن محكماً كقلاع العصور الإسلامية المتوسطة، إذ إنَّهُ دُثِرَ ولم يبق منه في زماننا سوى أطلال السور وبعض الجدران تختفي تحت دور الأهلين، التي بنيت فوقها».

(انتهى الإقتباس من كتاب وصفي زكريا).

التعقيب على نص المرحوم وصفي:

زالت معظم البيوت ذات القبب البيضاء وحَلَتْ محلها الأبنية الأسمنتية..

تل العمارنـــــة: مدينـــــة الفرعـــــون أخناتـــــون /١٣٧٠ ــ ١٣٤٩ ق. م/ دام حكمه كما هو واضحٌ إحدى وعشرين سنة .. بمديرية أسيوط بمصر. بناها بمدة سنتين وكانت مبانيها كلها من اللُّبْنِ واتخذ الشمس إلهاً رسمياً للعبادة. ولذا كانت المعابد في تل العمارنة مكشوفة حتى تكون معرضة لأشعة الشمس.

وقد انتهز الحثيون والأمراء السوريون الموالون لهم فرصة إنشغال الفرعون بالديانة الجديدة .. وشقوا عصا الطاعة على الحكم المصري يساعدهم الحثيون .. وقد طلب الأمراء السوريون، الذين بقوا موالين للحكم المصري، النجدة من الفرعون أخناتون للدفاع عن أنفسهم ضد الثائرين وأحلافهم الحثيين. فرد عليهم الفرعون رداً جميلاً، وهذه الرسائل المتبادلة عثر عليها المنقبون في تل العمارنة عام /١٨٨٦ م/ وهي مكتوبة بالخط المسماري وباللغة البابلية على رقم من الطين المشوي.

سليمان باشا العظم: أحد ولاة الأسرة العظمية الذي عينه العثمانيـــون حاكمـــاً على بلاد الشام ودام حكمـــه من /١٧٢٥ ــ ١٧٤٣ م/ توفي في /٤ رجب ١١٥٦ هـ/ الموافق /٢٥ آب ١٧٤٣ م/ وهو يحاصر ظاهر العمر والي عكا في فلسطين قرب بحيرة طبرية.

ينكجرية: جنود إنكشاريون جَنَّدَهُمْ العثمانيون من الأطفال المسيحيين في البلقان. وقد دُرِبوا على الأساليب القتالية وكانت اللغة /السلافية/ هي الغالبة على معظمهم.. قضى عليهم السلطان محمود عندما أصبحوا يعارضون الإصلاح واقتباس الحضارة الأوروبية.

علاليف: عَلَفُ للخيول الخاصة بجنود قلعة تلبيسة التي أوكل إليها مهمة حفظ الأمن في منطقة تلبيسة وخاصة طريق الحج السلطاني.

تعابين: رواتب للجنود الإنكشاريين وهؤلاء تدفع نفقاتهم من خزينة الدولة العثمانية كما يظهر في النص.

في عام ١٩٧١ أصبحت تلبيسة مركز ناحية. أما سكانها فقد ناهزوا عشرين ألفاً من الأنفس.

في تلبيسة كثير من الأطلال الدارسة «خربة السبيل، خربة أبو ظاهر، وخربة الوزير، وخربة أم العمد، وخربة السودا، وغيرها».

ملحق رقم ــ ٥ ــ

معركة طروادة المصور أحداثها على التابوت الرخامي في الرستن

كأساً من الشعر لو تسقى الشموس به
ترنحت ومشى التـــاريخ سكرانـــــا

«شاعـر اليمن: محمـد محمـود الـزبيري ــ في مجلـة الآداب اللبنانيـة العدد ــ ٣ ــ آذار ١٩٦٣ السنة الحادية عشرة».

نشيد الزمان
وقصيدة الماضي
وغناء السلف
وحداء القافلة التي لا تفتأ تَخُبُّ

في بيداء الأزل، إلى الواحةالمفقودة..
في متاهة الأبد
لن تصمت يا هوميروس
فالقيثارة الخالدة لا تزال بيديك
والقلوب هي القلوب
فدع أوتارها تملأ الدنيا أنيناً
فقد أوسعتنا هذه الدنيا أنيناً
ورنينك العذب أذهب لأنين الشاكين ولوعة الباكين.
«الأستاذ دريني خشبة ـــ في مقدمته الترجمة الالياذية ص ١٠».

حقاً علينا أنْ نتعرض بإيجازٍ لأحداث طروادة التاريخية، التي هي أقدم ملحمة، وأشهرها عند الشعوب القديمة، وكُنا أول الأمر قد ذكرناها بشكلٍ مختصرٍ، نظراً لورودها في سياق البحث.. ولطبيعة سير الأحداث. فهذه المدينة التي خلَّدهـا شاعـر الإغريـق الأكبر هوميروس Homero / في القرن التاسع قبل الميلاد/ كانت مجهولة الموقع حتى القرن التاسع عشر الميلادي، إلى أن جاء هانيريش شليمان الألماني / ولد عام ١٨٢٠م/ الذي أغرم منذ نعومة أظفاره بحب طروادة. وذلك نتيجة القصص التي كان يرويها والده له، والتي صاغها هوميروس عن حصار طروادة، وعن رحلات البطل أوديسوس.

كان والد شليمان فقيراً، فعمل الولدُ بالتجارة في أحد المحلات .. وطاف معظم دول العالم، ثم قرر السفر إلى أمريكا الجنوبية ولكن السفينة تحطمت وحَمَلَتْهُ الأمواج وألقت به على شواطئ هولندا، وأصبح يعمل ككاتب تجاري في إحدى المحلات أيضاً. وقسم راتبه إلى قسمين: القسم الأول لشراء الكتب، والثاني يعيش به وبأحلامه الواسعة، مِنْ حلمه الكشف عن طروادة، وخلال أسفاره أتقن إحدى عشر لغة أجنبية منها اللغة العربية، ثم سافر إلى بلاد اليونان وطَلَّقَ زوجته الروسية التي لم ترافقه إلى حيث حط الرحال .. وتزوج فتاة يونانية. رزق منها بمولودين: الولد سمّاه آغاممنون، والبنت سماها آندروماخي على اسم زوجة بطل مدينة طروادة هكتور.

وعندما نال موافقة الحكومة العثمانية عام /١٨٧٠م/ بالتنقيب في منطقة /حصار لق/ قرب مضيق الدردنيل، بدأ الحَفْرَ والتنقيب لمدة سنة مع عددٍ من العمال، وسط الحرارة والبرودة الشديدة وزوابع الرمال، ثم عثر عمالهُ على جرة أثناء الحفر فبعث العمال إلى الإستراحة، وعند فتحها وَجَدَ كنزاً عبارة عن خمسين ألف قطعة مصنوعة من الذهب والفضة، فظن أنه عثر على كنز ملك طروادة /بريام/ ولكن العلماء الذين انضموا إليه بعد الإكتشاف أثبتوا إنَّ الكنز يعود إلى عصرٍ أقدم من عصر بريام. ذلك أنَّ العلماء، وهانيريش

شليمان اكتشفوا تسع مدنٍ بائدة في المواقع المذكور وهي من تحتٍ إلى فوق : /١/٢/٣/٤/٥/٦/٧/٨/٩/. فالطبقة الأثرية ذات الرقم الأول عبارة عن قرية ترجع إلى العصور الحجرية القديمة؛ أي إلى /٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد/ والطبقة الأثرية ذات الرقم /٢/ هي التي اكتشف فيها الكنز المذكور، والطبقة الأثرية السادسة هي التي ينطبقُ عليها أوصاف الشاعر هوميروس، وهكذا اكتشف هانيريش شليمان مثل كولمبس عالماً لم يقصده.

أما حرب طروادة فتأخذ شكل الأساطير وخلاصتها: أنَّ /باريس/ إبن ملك طروادة اختطف /هيلين/ الجميلة الفاتنة زوجة الملك /مينلاوس/ ملك اسبرطة، عندما كان في ضيافة الأخير... فثار اليونانيون لشرفهم وجمعوا أسطولاً وجيشاً وألقوا الحصار على طروادة تحت قيادة البطل آغاممنون. وسارع حلفاء طروادة لنجدتها وتولى قيادة الجيش البطل هكتور، ودام الحصار مدة عشر سنوات، انتهى إلى انتصار اليونانيين على الطرواديين والأحداث الدامية التي جَرَتْ خلال الحصار الطويل هي موضوع قصيدة الالياذة /نسبة إلى اليون وهي مدينة طروادة/ ولكن المؤرخ هيرودتس يستبعد أن تقوم كل هذه الحرب بسبب خطف امرأة، فأرجعها إلى تكاثر السكان في بلاد اليونان،

وانطلاق الأخيرين إلى الفتح والإستعمار إذاً فما أقدم نظرية الفتح العدواني. والمجال الحيوي في التاريخ !!

فقد وقف الطرواديون في وجه التوسع اليوناني، فاقتضت الضرورة الاقتصادية وبسط الهيمنة، إزالة هذا العدو الخطر من عالم الوجود، والدمار الشامل.

وهكذا تناقلت الأجيال خبر هذه الحرب التي قَضَتْ على شعب بأكمله وجاء شاعر الإغريق وخَلَّدَ هذه الملحمة.. بأشعاره.. وعُدت الإلياذة إحدى قمم الأدب العالمي التي صنفها الدكتور/عبد الرحمن بدوي/ والثلاث الأخريات الكوميديا الإلهية لدانتي الإيطالي، ودون كيخوته، لسرفانتس الإسباني، وفاوست لغوته الألماني. فالصفة السائدة في الإلياذة هي البطولة، وفي الثانية القداسة، وفي الثالثة التهكم، وفي الرابعة: الصفة والنزعة الإنسانية.

هذا ولم يكن الفنانون بعيدين عن الميدان، فجاء النحاتون وخلدوها بإزاميلهم، والرسامون بريشتهم، وكان حصيلتها تلك المشاهد المُصَوَّرة على تابوت الرستن الرخامي أكبر شاهد على تلك الحرب التي وصلت سيرتها إلى الرومان، وعَلَقت بوجدانهم على مر الأجيال، لأنّ هؤلاء اعتبروا أنّ أجدادهم أتوا من آسيا الصغرى بعد خراب طروادة..

واستوطنوا سهل اللاتيوم بإيطاليا.. وَقَدْ خَلَدَ مسيرة الطرواديين الذين نجوا من المذبحة /أي أجداد الرومان/ شاعر الرومان الأكبر: فيرجيل، وهو عند الرومان، مثل هوميروس عند الإغريق وقد عاش الشاعر الروماني فيرجيل بين أعوام /٧١ ـــ ١٩ ق.م/ وهذا ما يقوله في مقدمتة الانياذة:

«للسلاح أغني وللرجل / آيناس الطروادي / الذي كان أول من جاء به القدر شريداً من سواحل طروادة، إلى إيطاليا وشواطئ لافينوم ـــ يضرب على غير هُدى ـــ بقوة من السماء ـــ في آفاق البحر والبر ـــ بسبب غضب جونو / إله عند الرومان / الذي لا يعرف الصفح وقاس الكثير في الحرب أيضاً / هي الحرب الطروادية / كي يستطيع أنْ يؤسس مدينة ويأتي بآلهته إلى لاتيوم، حيث أتى الجنس اللاتيني، وسادة ألبا / شيدها ابن آيناس الطروادي على بعد ١٥ كم من روما / وأسوار روما الشاهقة إلى الوجود»...

ومن الجدير بالذكر أنَّ طروادة كانت محجاً للقادة الرومان أثناء زيارتهم للشرق على ما قيل.. ومن أجدر بالأحفاد، في تخليد مآثر الأجداد.

ولطرافة موضوع الأساطير، سنقوم بجولةٍ في عالمها المثير...

وخاصة الأساطير التي نبتت في تراب هذا الشرق، وبعد أن تعرفنا على أسطورة طروادة، التي حجبت الحقيقة التاريخية طوال القرون.

المصادر:

ـ الإلياذة، ترجمة دريني خشبة، لهوميروس.
ـ اليونان ـ آمالي جامعية ـ جامعة دمشق ١٩٦٦م.
ـ المنجد: قسم التراجم.
ـ الإلياذة: فيرجيل ـ القسم الأول /ص ٨٢/ ترجمة كمال ممدوح حمدي.

ملحق رقم ـ ٦ ـ

الرستن والحرب العامة الأولى

الأتراك يفوزون بمعركة بفضل رستني

لابد من إعطاء نبذة قصيرة عن وضع السكان ومعاناتهم أثناء الإحتلالين العثماني /١٩١٤ ـ ١٩١٨/ والفرنسي /١٩٢٠ ـ ١٩٢٥/ وتجنيد الشباب العرب من سكان البلاد، حيث كانوا يساقون إلى معسكرات التدريب، إستعداداً لترحيلهم إلى جبهات القتال، عندما تدعو الحاجة إلى ذلك.. وسأكتفي بتقديم صورة عن اشتراك بعضٍ من مدينة الرستن في الحرب العامة والتي دعيت باسم /سفربرلك/ وذلك على مسرح عمليات القفقاس ولندع المحرر السياسي لجريدة /التايمز/ يصف لنا دخول تركيا الحرب «أخذ الترك

بتعبئة جيوشهم في أواخر شهر تموز /١٩١٤/ كما تأكدوا أنَّ الحرب واقعة لا محالة »، وكانت التعبئة تسير ببطء عظيم، ولكن لما أعلنت تركيا الحرب على الحلفاء، وانضمت إلى ألمانيا، كان لدى الترك نصف مليون جندي، يحملون السلاح، وربع مليون جندي يتمرنون على الأصول الحربية في مختلف البلاد والمراكز العسكرية وكان لدى الترك حول الآستانة وفي الدردنيل ما يقارب المائتي ألف جندي، وكانت هناك قوة تقدر بخمسين ألف جندي في تراقيا وحول أدرنه، وما يقارب من أربعين ألف جندي في فلسطين، يضاف إليهم بعض العشائر العربية « ووضع الترك في الوقت نفسه قوة في القوقاس تجاه روسيا، وقوة أخرى في سورية، وعلى حدود مصر ».

ولما دخلت تركيا في الحرب العامة /أول تشرين الثاني/ كان الرأي السائد عند جميع النقاد العسكريين أنَّ تركيا لن تحرك ساكناً في الوقت الحاضر، لأسباب كثيرة منها موقف اليونان وبلغاريا الذي لا يزال مجهولاً، فلم يكن باستطاعة الترك والحالة هذه سحب جيوشهم من حدود هاتين الدولتين، وأما من جهة القوقاس، فإن الحركات الحربية تتوقف دائماً في فصل الشتاء بسبب كثرة برده وغمر الثلوج لطرقه، ومعابره.. ولكن الترك أظهروا في الحقيقة تضحية وجهوداً يستحقون عليها كل الثناء. فما كادوا يعلنون الحرب، حتى أصدروا الأمر إلى

جنودهم بمهاجمة روسيا، والزحف عليها من جهة القوقاس، برغم الصعوبات التي كان سيلاقيها الجيش الزاحف في طريقه، خصوصاً أنَّ الحدود الروسية التركية في هذه الناحية كانت عبارة عن جبلٍ يمتد من البحر الأسود إلى الحدود الإيرانية في الشرق .. والحرب في الجبال وفي فصل الشتاء ليست شيئاً هيناً ولا أمراً سهلاً.

وكان الروس أول من بدأ المعارك في القوقاس، فقد اجتازت فرقة من جيشهم الحدود في /١٣ تشرين الثاني/ ولكن القوات التركية أرغمتهم على التراجع، بعد أنْ ألحقت بهم خسائر عظيمة .. وفي أواخر تشرين الثاني بدأت القوات التركية التي كانت قد اتخذت أرضروم مركزاً بالتقدم نحو روسيا، وكان أنور باشا قد تولى قيادة الجيش التركي بنفسه / في المرحلة الأولى كان قائد الجيش التركي: عزت باشا/ ويقدر عدد الجيش التركي الزاحف بمائة وخمسين ألفاً، وأما الروس فكانوا في الواقع لا يزيدون عن مائة ألف جندي بقيادة الجنرال: فورونوف.

ويظهر أنَّ أنور باشا حاول في هجومه هذا أنْ يتأثر الطرق العسكرية الألمانية ويحاول تطويق الجيش الروسي الزاحف، ولكن عملية التطويق لا تكون ناجحة حقاً إلّا إذا كانت طبيعة الأرض نفسها تساعدها وطبيعة الأرض في القوقاس وعلى الحدود بصورة خاصة لم تكن ملائمة لمثل هذه الخطة الحربية، وإذا أضفنا إلى ذلك صعوبة القيام

بالحركات الحربية في البلاد الروسية في فصل الشتاء. أدركنا الأسباب التي حالت دون نجاح الترك، وساعد الروس على القضاء على بعض الفرق التركية التي حاولت تطويقهم، وبذلك فشل الترك في محاولتهم هذه، واضطروا في أواسط شهر كانون الثاني في التراجع إلى / أرضروم / مركزهم الرئيسي.

«ولقد كانت خسارة الترك في هذه المعارك فادحة، وقد أخطأت القيادة التركية بالقيام بهجومها هذا في هذا الفصل القارص من الشتاء، كما أنَّ الحرب في جبال تعلو عشرة آلاف قدم عن سطح البحر لم يكن بالأمر الهين، ولكن الغاية من الهجوم كانت في الواقع إجبار روسيا على سحب بعض جنودها من الجبهة الألمانية لتخفيف الضغط عن ألمانيا والنمسا، وقد وفق الترك والألمان إلى غايتهم هذه»[٩١] . (يراجع بشأن سير المعارك في جبهة القوقاس وأهوال الجوع والحرب، وطمس الحقائق عن القادة: المقال القيم للمؤرخ الأردني: عارف العارف في مجلة العربي: العدد ٩٤ سنة ١٩٦٦م، حيث اشترك في الجبهة الروسية وأسر).

فعندما كان قائد الجيش العثماني /عزت باشا/ قائداً في بدء العمليات العسكرية للجيش العثماني أخذت إحدى التشكيلات

٩١ــ المجموعة التاريخية المصورة / ج ٥ ص ٣٤/ محررها: عمر أبو النصر /.

العثمانية ، وضع القتال الهجومي ، وكان أحد أبناء الرستن ضمن التشكيل في النسق الأمامي ، ممتطياً صهوة جواده ، وقبل إصدار الأوامر بالهجوم لهذا التشكيل ، لم يشعر الخيّال الرستني إلّا وحصانه من تلقاء نفسه ، قد إنطلق بسرعة وكأنه صاروخ ترك الجاذبية الأرضية ، بسرعة لم يكن للخيّال عهدٌ بها ... عندها انتضى الخيال الرستني سيفه وأشهره وتابع هجومه الغير مقصود . ولما رأى القائد العثماني هذه المبادرة الفردية ..! عزز الخيال بأنْ أعطى أمراً بالهجوم العام على الروس ، الذين فوجئوا بهذه الصدمة ، ولم يكن أمامهم سوى الإنطواء إلى الخلف ، فانهزموا تاركين ميدان المعركة .. وقد أنعم فيما بعد على الخيال المذّكور ، بالوسام العثماني ، ونال ترقية إلى رتبة ضابط ، وعندما رجع إلى مسقط رأسه في أول إجازة له ، كانت حمائل سيفه ، و وسامه ، ورتبته علامة لشجاعته وإقدامه ... وما أكثر ماروّى الجنود العربُ وفادوا بأرواحهم في الحرب التي لا تهمهم ، وحاربوا أعداءاً لم يكن بينهم وبين العرب أدنى عداوة كالروس ، وسيقوا إلى ساحات الحروب رغم أنوفهم ، فألوف من شباب الجزائر العربية قتلوا في الدفاع عن العاصمة / باريس / أثناء الهجوم الألماني على فرنسا واحتلالها في الحرب العالمية الثانية /١٩٣٩ ــ ١٩٤٥ م/ وعند انتهاء الحرب ، وأثناء إحتفال كافة شعوب العالم بعهد السلام والإخاء ، طالب الجزائريون بالإستقلال . فكان نصيبهم مذبحة اقشعرت لها الأبدان .

ملحق رقم ـ ٧ ـ

الوجه الوطني لمدينة الرستن

إبان الثورات السورية على الإستعمار الفرنسي /١٩٢٠ ـ ١٩٤٥ م/

في عام /٥٨٣ هـ/ تحطمت آمال أوروبا في استعمار الشرق بعد احتلال له دام قرنين من الزمان /١٠٩٦ ـ ١٢٩١ م/ وذلك إثر معركة حطين الخالدة التي انتصر فيها العربُ المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي على الغزاة الصليبيين في فلسطين.

وقال صلاح الدين بعد انتصاره: «إنهم سوف لا يعودون مرة أخرى إلى هذه البلاد موجهاً كلامه إلى الصليبيين المنهزمين».

وخلال الحرب العالمية الأولى /١٩١٤ـــ١٩١٨م/ وعلى أثر إتفاقية سايكس ـــ بيكو وقعت تركة الرجل المريض /الدولة العثمانية/ بين براثن الإستعمارين الفرنسي والإنكليزي.. وكانت سورية من نصيب الفرنسيين، وبعد انهزام الأتراك في الحرب العالمية الأولى والمعروفة بـ /سفر برلك/ دخلت القوات العربية وعلى رأسها: فيصل بن الشريف حسين مدينة دمشق الخالدة عاصمة الأمويين التـي انطلـقت منها الجيوش العربية في العهد الأموي، لفتح شمال إفريقية والأندلس. ومنها صدرت الأوامر لولاة العراق بفتح القسم الشرقي من العالم القـديم بقيادة: قتيبة بن مسلم الباهلي، ومحمد بن القاسم وغيرهم من القادة العظام الذين أجهزوا على الحضارة الطورانية في آسيا الوسطى وركزوا راية العرب فوق أسوار بلخ وسمرقند ووراء جبال تيان شان في الصين.

إذاً دخل فيصل وفي ركابه لفيفٌ من رجالات العرب، فيهم السوري واللبناني والعراقي والحجازي.. ومنهم ذلك البدوي: الشيخ عودة أبو تايه شيخ قبيلة الحويطات الأردنية، وأبرز فرسان بوادي الجزيرة العربية، وفي بعض الروايات أنَّ قبيلة عودة أبو تايه هي من أحفاد دولة الأنباط التي كانت عاصمتها البتراء.

وكانَ حلُمُ هؤلاء الرواد من العرب إعادة تركيز الراية العربية فوق دمشق كما كانت في العهد الأموي.. ولكن لم يستطع فيصل بعد

انتخابه ملكاً على سورية، من الوقوف أمام المطامع الفرنسية لتحقيق إتفاقية سايكس ــ بيكو، وعلى أثر تعلل الجنرال غورو قائد جيش المشرق الفرنسي بعدم وصول رد الإنذار الفرنسي في الزمن المعين كما هو معروف، إلى فيصل وحكومته، تقدم الجنرال غوابة على رأس القوات المعادية، لاحتلال دمشق، وبعد رحيل فيصل وحكومته من سورية، أوقف تسريح الجيش السوري على عجلٍ، وأنشئ خط دفاعي على جناح السرعة عند روابي ميسلون، لحفظ كرامة الوطن ثم وقعت معركة ميسلون /٢٤ تموز ١٩٢٠/ ودخل غوابة دمشق وذَيَّلَ مذاكراته عن معركة ميسلون بهذا التعليق الفريد:

«أنا في دمشق!! إن هذا الاسم كان يمثل لي شيئاً خرافياً، عندما كنت أقرؤه في سجلات عائلتي، وأنا بعدُ في سن الطفولة إنَّ / جان مونغوليه / الجد البعيد لجدتي من جهة أبي / لويز / كان قد وقع في الأسر خلال الحروب الصليبية الثانية /١١٤٧م/ ونقل إلى دمشق.

إنه كان من السواد الأعظم، ولذا لم يعامله السراقون / يقصد بهم المسلمين / المعاملة الحسنة التي كانوا يخصون بها الفرسان اللامعين وأهل دمشق، جعلوا منه في ذلك الحين عبداً يشتغل في أحد المصانع التي كان يصنع فيها الورق من القطن. فاشتغل جان المسكين هناك شغلاً شاقاً خلال سنواتٍ، وبعد ذلك فرَّ من دمشق، وتمكن من

الإلتحاق بالجيش الصليبي بعد اجتياز آلاف المخاطر... وعندما عادَ إلى مسقط رأسه، بعد غياب دام عشر سنواتٍ، أسس أول طواحين الورق التي عرفتها أوروبا أوليست «العدالة الإلهية» هي التي سمحت لحفيد أسير الحروب الصليبية أنْ يدخل المدينة المقدسة ظافراً منصوراً !!؟؟»[٩٢] أترك هذا النص الفريد لحكم القراء الكرام بدون تعليق ليحكموا عليه بأنفسهم.

ومن الجدير بالذكر أنَّ فرنسا كانت تعتبر نفسها وريثة الممالك الصليبية المنهارة في الشرق العربي، حيث ساهم الفرنسيون بقسطٍ وافرٍ بتلك الحملات، بل حاولوا احتلال مصر، ولكنهم ردوا على أعقابهم وأسر ملكهم، وسُجن في دار بن لقمان في مدينة المنصورة ووكل بحراسته إلى الطواشي /صبيح/.

هذا وخلال ربع قرنٍ /١٩٢٠ ـــ ١٩٤٥م/ من الاحتلال الفرنسي لم يهدأ الشعب السوري، بل قام بثوارت متلاحقة، أقضت مضاجع المستعمر: فمن ثورة الدنادشة في تل كلخ إلى ثورة إبراهيم هنانو في جبل الزاوية، إلى ثورة سكان جبل العرب بقيادة: سلطان باشا الأطرش، إلى ثورة صالح العلي في الشيخ بدر.

---

٩٢ ـــ مجلة البحث التاريخي /العدد الأول/ السنة ١٩٧٧/ ص١٠٤/عبد الرحمن أيوب/ نقلاً عن ساطع الحصري/ يوم ميسلون/ ص٣٦٨/.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، /١٩٣٩ ـــ ١٩٤٥/، قام السوريون يطالبون بالإستقلال، ولكنهم جوزوا كجزاء سنحار فمن القصف بالمدفعية للسكان الآمنين، إلى التمثيل بشرطة المجلس النيابي وقتل ثمانية منهم، وحماة كبقية المدن السورية كان لها أيضاً شرف الإسهام في زعزعة المستعمر الفرنسي، وعلى أثر الأحداث الدامية، تدخل: ونستون تشرشل، آنذاك وطلب من ديغول سحب القطعات العسكرية خارج المدن السورية، تمهيداً للجلاء.

ففي تلك الأيام، لم يقتصر الأمر على سكان المدن في الثورة على الإستعمار الفرنسي، بل ساهم بها سكان الريف بإمكانياتهم المتواضعة في مقاومة المحتل ومقارعته، وخاصة سكان مدينة الرستن.

ففي أثناء ثورة مدينة حماة /١٩٤٥م/ وفي الصيف على وجه التحديد، قدمت حملة عسكرية من القوات الفرنسية المرابطة في حمص لدعم القوات الاستعمارية في حماة، حيث كان الفرنسيون يتحكمون بالمدينة من قلعتها وشرفتها فوق المدينة، ويرسلوا الدوريات المسلحة لتجوب الشوارع والأحياء. فقام سكان حماة بخطف بعض الفرنسيين والإستيلاء على أسلحتهم، فأمطروا المدينة بوابلٍ من قنابلهم؛ فأغلقت المدينة الأبواب، وخرج الثوار إلى المواقع الحصينة، وفي هذه المحنة، هَبَّ أهلُ الرستن، لجمع المؤونة للثوار مثل مواد: البرغل والطحين والسمن

والخبز في الحالات المستعجلة وإخبار الحمويين عن النجدات القادمة من حمص على سبيل الحيطة والحذر ، والمراسلة مع الثوار . وَقَدْ روى ليَّ شاهدُ عيانٍ من مدينة الرستن أخبار هذا المسلسل الملحمي فقال : «عندما استفحل الأمر ، قرر محافظ حماة خالد الداغستاني ، وقائد شرطتها حلمي الجراح ، الاجتماع مع وجهاء أحياء المدينة ، وعَمَمَ الأمر على كافة المناطق وقرى المحافظة بدعم الثورة» .

وتابع شاهد العيان روايته عن الأحداث : «كنت أنا جندياً في الدرك آنذاك في مخفر عقيريات وحسب تعليمات المحافظ إجتمعتُ مع رؤساء عشائر المنطقة ومنهم / متعب الريَّان / رئيس عشيرة الدعامشة ، وقد أراد المجاهدون في حماة قطع الجسر في الرستن ، لمنع الإمدادات من الوصول إلى القوات الفرنسية في حماة ... فأحدثوا على جناح السرعة ثغرة فوق أحد قناطر الجسر من الحافة الشرقية للجسر في قسمه الشمالي ، ولكنها سويت بسرعة وتابعت النجدات المعادية تقدمها إلى حماة ... وفي الإياب عندما اجتازت قوات الحملة الفرنسية الجسر بآلياتها ، نزل أحد قادة الفرنسيين مع الجند وفتشوا الطاحون آنذاك فعثروا على المرحوم : / خالد طلاس / وأردوه قتيلاً برصاصهم واقتادوا إبنه الشاب / حسين/ وكان بجوار الجسر من الجهة الشمالية أيضاً / عبد الحليم فرزات / فاقتادوه معهم . وفي هذه الأثناء قدمت طائرة فرنسية من

حمص وبدأت تحوم في الجو فوق البلدة ، فخاف الأهالي العُزَل من السلاح : القصف الجوي ، لأنَّ الفرنسيين غضبوا من إحداث الثغرة في الجسر ، واعتقد أهل البلدة : أنَّ قتل المواطن خالد طلاس واقتياد إبنه ، وعبد الحليم فرزت ، وتحليق الطائرة الحربية فوق البلدة ، فكل خَمن وتحسس لا شعورياً أن الفرنسيين لا بد لهم من الإنتقام ، بسبب إحداث الثغرة في الجسر فوق العاصي . وعندما أصبحوا جنوب البلدة على مرتفعٍ يقال له / طلعة البيلون / نسبة إلى تراب رمادي اللون ، يستخرج آنذاك من نفق يمتد شرقاً في باطن ذلك المرتفع ، وتستخدم عجينته في غسل شعر الرأس ، ويعتقد أنَّ له قيمة طبية . هنا أنزل المستعمرون الشاب / حسين طلاس / ثم أجلسوه على حجر كبير وأوثقوه كتافاً ، إستعداداً لإطلاق النار عليه ، عندها أسَّر له الرامي وكان عربياً من جبل العرب ، وأفهمه بأن لا يقع أرضاً قبل سماعه إطلاق النار ، وعندما أطلق الرصاص الوهمي على الشاب المُقَّيَد ، تابعت الحملة سيرها .. وبقي الشاب حياً يرزق وكتبت له الحياة مرة أخرى .

ولم يكتف قائد الحملة بذلك ، بل أمر بقصف بلدة الرستن بقنابل المدفعية .. ولكن الرامي العربي ، وَجَّهَ قنابله إلى بقعةٍ خالية من السكان والعمران / سفح التل في البلدة / ومع ذلك فقد سقطت إحدى القنابل في مخزن للغلال وحالما انتهى هذا المشهد الدراماتيكي

فوق أرض مدينة الرستن،تابعت الحملة سيرها إلى حمص، ومعهم الشاب الثاني: عبد الحليم فرزات حيث وُضِعَ في أحد سجون الثكنة العسكرية.. وأثناء الليل قدم إليه أَحَدُ الجنود العرب، العاملين في الجيش الفرنسي وأخذ على عاتقه، إنقاذ هذا الإنسان مهما كلفه الأمر، وعين له أحد الطرق، وأوصاه بأنْ لا يلتفت إلى ورائه.. وأنْ يبذل جهده في الجرى مهما سمع أو رأى. وفعلاً قام ذلك الجندي العربي بإطلاق عدة عيارات نارية لإيهام رؤسائه آنذاك.. أنَّ السجين قد فرَّ من سجنه وقد أطلقت عليه النار ولكنها أخطأته.

وفي الرستن أنشئ الخط الدفاعي لقوات الجنرال فيشي ضد قوات الجنرال ديغول في ١٠/تموز/١٩٤١م.... وفي حمص قابل السيد هاشم الأتاسي المندوب /برتلو/ وطلب منه أنْ تعتبر حمص مدينة مفتوحة كذا... وأمام ضغط القوات الهندية ـ الأردنية الزاحفة من تدمر باتجاه حمص، واستحالة المقاومة أمام القوات الديغولية الزاحفة بدورها بين النبك ـ حسياء، وتلبية لرغبة المرحوم هاشم الأتاسي، إنتقلت القوات الفيشية المحالفة للألمان بمعداتها، من مدينة حمص إلى الرستن لإنشاء خط التمركز الدفاعي[٩٣] وبالفعل قامت القوات المذكورة بإنشاء خط التمركز في شمال جسر البلدة، حيث يشكل وادي العاصي

٩٣ـ مجلة دراسات تاريخية /العدد ٥/.

والجسر فيما لو نُسِفَ منه قُسِم ــ كما فعل جانَ يردي الغزالي ــ حاجزاً تسهل عنده المقاومة، نظراً لصعوبة اجتياز هذا المانع الطبيعي على القوات المهاجمة.

ملحق رقم ـــ ٨ ـــ

تتويج ملك حماة الأيوبي
في الرستن

بعد أنْ يعدد المؤلف تناول حماة بين أيدي مختلف الولاة : زمن الأيوبيين والمماليك .. يصل إلى القول :

« ثم صارت لمؤلف هذا الكتاب : إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، ولنرجع إلى بقية الحوادث سنة /٧١٠/ ولما قَارَبْتُ حماة ونزلت الرستن ألبسني الأمير سيف الدين فجلس التشريف السلطاني .. وهو أطلس أصفر وكلوته زركش رقم ومنطقة ذهب مصري وسيف محلى بذهب مصري . وأركبني حصاناً برقياً ، بسرجه ولجامه ودخلتُ حماة » .

ولنتابع بقية الحدث: «وقرئ التقليد الشريف بحضور الناس وأعطيْتُ الأمير سيف الدين قجلس /رسول ملك مصر/ المذكور أربعين ألف درهماً، وأوصلته بالخلع والخيول وتوجه من حماة في يوم الأحد التاسع والعشرين من جمادى الآخر من هذه السنة /٧١٠هـ/»[٩٤] ...

إذاً فأبو الفداء: إسماعيل بن علي الأيوبي تَقَلَّدَ إمارة حماة ولبس خلعة الولاية في بلدة الرستن أما قيمة الهدية الأميرية إلى رسول الأعتاب السلطانية فهي على ما يبدو مجزية... وملك حماة هذا كان أحد القواد الذين أبلوا بلاءاً حسناً في محاربة العدو الصليبي.

٩٤ـــ المختصر في أخبار البشر /ج ٤ ص ٦٢/.

استدراك

.... وتتوالى الأنباء المثيرة عن الاكتشافات الأثرية في الرستن. ففي ١٩٨٩/٨/٢٢م أفصحت الأرضُ وأباحت عن أحد أسرارها الدفينة عن اكتشاف تابوت من الرخام يماثل في وزنه ومقاساته تابوت حرب طروادة المصور، ويمتاز هذا التابوت عن التوابيت الأخرى الثلاث بأنه يحمل هويته المسجلة عليه باللغة اللاتينية في وسط المنظر الأمامي والأساسي لوجه التابوت.

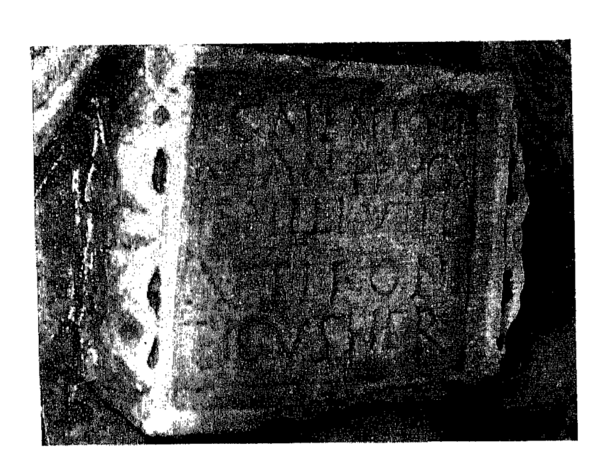
وقد قام كاتب هذه السطور بالتعاون مع مديرية آثار حمص، بتكليف مدير آثار حماة السيد عبد الرزاق رقزوق بترجمة الكتابة

المذكورة... وإذا بها تتضمن اسماً لضابط روماني من فئة آمري المائة من الجند... أما الرسومات الموجودة على أوجه التابوت الأربعة فهي:

١ ـــ إله الحب كيوبيد الذي كان يستهزئ بالصواعق التي يرسلها / جوبتير / رب الأرباب عند الرمان ضد أعدائه.

٢ ـــ عناقيد العنب وترمز إلى الخمر.

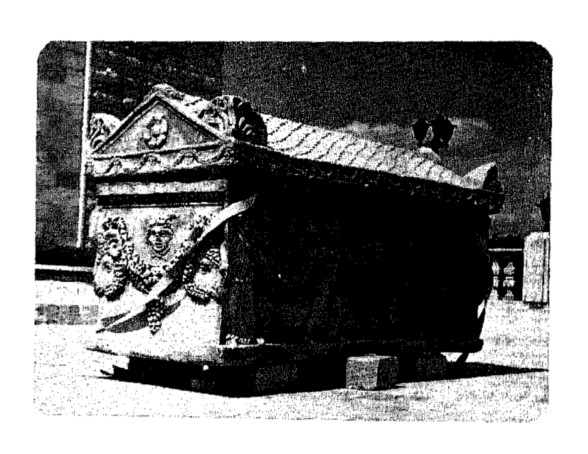
٣ ـــ جدائل مضفورة ترمز للنصر على الأغلب.



٤ ــ رؤوس كيامش ترمز أيضاً ولربما على التقدمات النذرية .

٥ ــ ميدوزا [Medusa] إحدى الأخوات الثلاث /gorgons/ في الأساطير اليونانية ، اللواتي تحيل نظراتهن كل من تقع عليه أبصارهن إلى صخر .

والكلمة تعني / الحارسة / ويُظَنُّ أنها ترجع إلى الجذر /med/ .



وهذه الكتابة على التابوت :

- PCAIENIOHI
- VIANOPPPCA
- IENIHIVILL
- IETLEON
- TICVSHER

المحتوى

الرستن: دراسة تاريخية عبر العصور / عبد الرحمن أيوب . ـــ [دمشق] :
دار طلاس ، ١٩٩٠ . ـــ ٢٣٠ ص : صور ؛ ١٨ سم .

١ ـــ ٩٥٦٫١٢٢ أي و ر ٢ ـــ العنوان ٣ ـــ أيوب
مكتبة الأسد

ع ـــ ١٩٩٠/٨/٦٧٥

رقم الإصدار ـــ ٤٩٧

في المنطقة الوسطى من سورية، وعلى بعد ٢٥ كم شمال حمص وجنوب حماة، تتربع مدينة الرستن بمبانيها الحجرية الجميلة، القائمة فوق الجبل والمشرفة على نهر العاصي، وشوارعها المرصوفة، وأعمدتها الضخمة، ومنحوتاتها المهشمة، وأقنيتها القديمة، والتي تعود بنا إلى عهود القدماء من العرب الأمويين والكنعانيين والآراميين والتدمريين والغساسنة والمسلمين.

لقد قالوا عنها:

«لم تكن حمص قبل العصر الروماني، وإنما كانت الرستن، المدينة الرئيسة وحدها في المنطقة التي أسسها سلوقس نيكاتور».

إنه كتاب شامل، يتضمن معلومات تاريخية وميثولوجية وحضارية مختلفة، أضف إلى ذلك المنجزات الحديثة والمعاصرة في الرستن.

